الإمام الشوكاني(١٢٥٠ هـ) وعقيدته في القدر من خلال تفسيره فتح القدير

د/خالد بن ناصر ال حسين

الأستاذ المشارك بكلية أصول الدين والدعوة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة البحث

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .

أما بعد فمن نعم الله الجلية المتوالية أن جعل في كل جيل من أجيال أهل الإسلام وفي كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي ، من يحمل دين هذه الأمة الراشدة ، ويبين للناس دين الله الحق الذي أنزله على رسوله ﷺ ومن يعطف على المسلمين وعلى تعليمهم وتربيتهم كما يعطف على أبنائه . ولقد كان علماء أهل السنة والجماعة شامة بين العلماء وشامة في الزمان فهم من نشر دين الله ودافع عنه وجاهد في سبيله ، وهم من بينوا الاعتقاد الحق ، وهم من ردوا على المبطلين ، وهم من خلف هذا التراث العلمي الكبير ، وفيهم يصدق حديث المصطفى ﷺ عن أبي هريرة ﷺ : « يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين »[١]

وقد آثرت أن أكتب عن عالم من علماء المسلمين الذين بينوا المعتقد الحق في ركن هام من أركان الدين ، وهو ركن الإيمان بالقدر. وسوف أتناول في هذا البحث عقيدة المفسر الإمام الشوكاني فيها مستدلاً بأقواله وما سطره في تفسيره فتح القدير في أهم مسائل القدر . سائلاً المولى تعالى أن يتغمد هؤلاء العلماء بواسع رحمته وكريم مغفرته وسابغ عطائه ومننه وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه .

مشكلة البحث:

ظهور طوائف خالفت ما جاء عن الله ورسوله ، حيث أنكرت عقيدة القدر وتأولت النصوص ، وحادت عن طريق الحق. فكان من الواجب الرد عليهم ، وتقرير معتقد أهل السنة والجماعة.

ومن هنا وقع اختياري على البحث في (الإمام الشوكاني وعقيدته في القدر) إذ هو علم كبير من علماء المسلمين من أصول زيدية ، حيث سلك منهج أهل السنة والجماعة.

أهداف البحث:

١- بيان المنهج الحق المتبع في الرد على المخالفين وفق الأدلة الشرعية والعقلية.

٢- الإسهام في بيان فساد من أنكر القدر والرد عليهم.

٣- إبراز ما يميز مذهب أهل السنة والجماعة من الإيمان بالغيب والتسليم الخبر الله ورسوله صلى الله عليه

٤ إبراز جهود العلامة الشوكاني إذ هو من علماء المسلمين الذين ساهموا في الدفاع عن الدين والعقيدة

أهمية البحث:

١ من المعلوم أن العلامة الشوكاني من صنعاء وهو يمني من أصول زيدية ، ولكن المذهب الزيدي لا يحجر على معتنقيه قراءة كتب المذاهب الأخرى والاجتهاد في طلب الحق واعتناقه عن قناعة تامة.

٢ هذا ما فعله الشوكاني حيث أصبح من كبار علماء السنة في زمنه بعد أن تبين له الحق .

٣ من هنا تكمن أهمية الإضاءة والبيان عما يعتقده في أركان الإيمان ومسائله ومن ذلك عقيدة القدر في الإسلام .

الدراسات السابقة:

وجدنا العديد من الأبحاث عن الإمام الشوكاني تختص بالتفسير والفقه وغيرها من الفنون التي لا علاقة لبحثتنا بها غير أن يوجد بحث بعنوان : " منهج الإمام الشوكاني في العقيدة " تأليف الدكتور عبد الله نومسوك

وقد بين أنه وافق أهل السنة والجماعة في كل أصول الدين ثم تعرض لبعض المسائل التي خالف فيها ، ولم يتعرض لعقيدته في القدر ، وهو ما نتعرض له في هذا البحث على وجه

التفصيل في جل مسائل القدر من خلال تفسيره فتح القدير.

منهج البحث:

سلكت مسلك المنهج الاستقرائي التحليلي من خلال أشهر كتاب للشوكاني ألا وهو تفسيره المعروف فتح القدير.

خطة البحث: يتكون من **مقدمة، تشتمل على:**

مشكلة البحث، أهداف البحث، أهمية البحث، الدراسات السابقة، منهج البحث

تمهيد، وفيه:

تعريف بالعلامة الشوكاني.

الفصل الأول: تعريف القضاء والقدر

الفصل الثاني: حكم الإيمان بالقدر

الفصل الثالث: حكم الرضا بالقدر

الفصل الرابع: الفرق بين القضاء والقدر

الفصل الخامس: مراتب القدر

الفصل السادس:معاني القدريات والشرعيات في آيات الكتاب

الفصل السابع: الهدى والضلال

الفصل الثامن: خلق أفعال العباد

الفصل التاسع: الفطرة

الفصل التاسع: الاستطاعة

الفصل العاشر: الميثاق

الفصل الحادي عشر: الآجال

الفصل الثاني عشر: اللوح المحفوظ

الخاتمة، ثم الفهارس

****

تمهيد

تعريف بالعلامة الشوكاني

تناول الكثير من الباحثين سيرة العلامة الشوكاني وكتبوا عنه الكثير وعن مؤلفاته ويمكننا تلخيص تلك السيرة دون إطالة في تعريف موجز يفي بالغرض، وهو: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني.

فقيه مجتهد من كبار علماء البحث من أهل صنعاء ولد بهجرة شوكان من بلاد خولان باليمن ونشأ بصنعاء ١١٧٣هـ وولي قضاءها سنة ١٢٢٩هـ

وكان يرى تحريم التقليد. له ١١٤مؤلفاً منها (نيل الأوطار من أسرار منتقي الأخيار –ط) ثماني مجلدات، و(البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع –ط) مجلدان و(إتحاف الأكابر –ط)، و(الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة –ط)، وكذلك (السيل الجرار –ط) جزآن (فتح القدير –ط) في التفسير و(تحفة الذاكرين). ومات حاكماً بصنعاء سنة.١٢٥٠ هـ [٢]

****

الفصل الأول

تعريف القضاء والقدر

تعارف أهل العلم أن القدر هو الاعتقاد الجازم أن الله تعالى علم كل شيء وكتبه ثم شاءه ثم خلقه وأبرزه إلى واقع مخلوق حسب ما أراد[٣]

ولم يتعرض العلامة الشوكان إلى تعريف جامع مانع للقدر ولكنه سار على منهج المفسرين في بيان حقيقة الآيات التي ذكر فيها القدر ومن ذلك ما ذكره في تفسير قول الله

(وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ) في أمر من الأمور ، ومن ذلك عدم الرضا بالقضاء (فَقَدْ ضَلَّ ضلالا مُّبِيناً) الأحزاب ٣٦

أي ضلّ عن طريق الحق ضلالاً ظاهراً واضحاً لا يخفى [٤].

وقال مبينا ذلك في موضع آخر:

"وقضاء قضاه سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه ، والقدر : التقدير ، وقد قدّمنا الكلام"[٥]

وقال: (وَإِذَا قضى أَمْرًا) البقرة ١١٧ أي : أحكمه ، وأتقنه . قال الأزهري : قضى في اللغة على وجوه مرجعها الى انقطاع الشيء ، وتمامه ، قيل : هو مشترك بين معان ، يقال قضى بمعنى : خلق ، ومنه : (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات) فصلت ١٢ ، وبمعنى أعلم ، ومنه : (وَقَضَيْنَا إلى بَنِى إسرائيل فِي الكتاب)[٦]

وقال أيضا:

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْء فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) الفرقان ٢١ قال : بين لكل شيء من خلقه صلاحه ، وجعل ذلك بقدر معلوم[٧]

واستدل في موضع آخر على القضاء بحديث[٨] أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما قضى الله الخلق كتب في كتاب على نفسه ، فهو موضوع عنده : إن رحمتي تغلب غضبي[٩] " وفي رواية «سبقت»[١٠]

وبحديث

« لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش : إن رحمتي سبقت غضبي »[١١]

وقد روي من طرق أخرى بنحو هذا[١٢] .

أما لفظ القدر فقد ذكر فيه أنه ما قدره الله وهيأه فقال:

(فقدرنا) وهما لغتان بمعنى تقول : قدّرت كذا وقدرته (فَنِعْمَ القادرون) المرسلات ٢٣ أي : نعم المقدّرون نحن[١٣].

الفصل الثاني: حكم الإيمان بالقدر

مما لا ريب فيه أن الإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان لا يتم إيمان المسلم إلا به [١٤] ويستدل أهل الإسلام على ذلك بجملة ما ورد في القرآن الكريم من التأكيد على ذلك ، وبما روي في الصحيح من حديث جبريل: "قال أخبرني ما الإيمان؟ قال :أن تُؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره "[١٥]

قال رحمه الله مقررا ذلك في مواضع كثيره من تفسيره منها عند قوله تعالى:

(فَقَدَرْنَا) قرأ الجمهور : (فقدرنا) بالتخفيف . وقرأ نافع ، والكسائي بالتشديد من التقدير . قال الكسائي ، والفرّاء : وهما لغتان بمعنى تقول : قدّرت كذا وقدرته { فَنِعْمَ القادرون } أي : نعم المقدّرون نحن . قيل المعنى : قدّرناه قصيراً أو طويلاً [١٦].

وأورد في موضع آخر ما يفيد أن الإيمان بالقدر هو العروة الوثقى:

عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر ، فإنهما حبل الله الممدود ، فمن تمسك بهما ، فقد تمسك بعروة الله الوثقى التي لا انفصام لها »[١٧] وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس قال : إذا وحد الله وآمن بالقدر فهي العروة الوثقى[١٨].

وقال في هذا الشأن

(وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ) التغابن ١١ أي : من يصدّق ويعلم أنه لا يصيبه إلاّ ما قدّره الله عليه يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء[١٩]

الفصل الثالث:حكم الرضا بالقدر

من منازل الإيمان العظيمة في اعتقاد أهل السنة والجماعة الإيمان بالقدر خيره وشره ، ومنه الرضا بما قدره الله وعدم التسخط[٢٠]

قال العلامة الشوكاني مقررا ذلك:

(وَمَن يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ) في أمر من الأمور ، ومن ذلك عدم الرضا بالقضاء (فَقَدْ ضَلَّ ضلالا مُّبِيناً) الأحزاب ٣٦

أي ضلّ عن طريق الحق ضلالاً ظاهراً واضحاً لا يخفى[٢١] .

وقال مبينا منزلة التسليم لما قضى الله وقدر . قوله : (والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) آل عمران ٣٦ قرأ أبو بكر ، وابن عامر بضم التاء ، فيكون من جملة كلامها ، ويكون متصلاً بما قبله ، وفيه معنى التسليم لله ، والخضوع ، والتنزيه له أن يخفى عليه شيء . وقرأ الجمهور (وضعت) ، فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته ، والتفخيم لشأنه ، والتجليل لها حيث وقع منها التحسر ، والتحزن ، مع أن هذه الأنثى التي وضعتها سيجعلها الله ، وابنها آية للعالمين ، وعبرة للمعتبرين ، ويختصها بما لم يختص به أحداً . وقرأ ابن عباس : «بما وضعت» بكسر التاء على أنه خطاب من الله سبحانه لها ، أي : إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب ، وما علم الله فيه من الأمور التي تتقاصر عنها الأفهام ، وتتضافر عندها العقول[٢٢]

وبين فضل التسليم والرضا بالقدر:

(وَمَن يُؤْمِن بالله يَهْدِ قَلْبَهُ) التغابن ١١ أي : من يصدّق ويعلم أنه لا يصيبه إلاّ ما قدّره الله عليه يهد قلبه للصبر والرضا بالقضاء[٢٣]

الفصل الرابع: الفرق بين القضاء والقدر

سلك العلامة الشوكاني مسلك كثير من المفسرين في بيان معاني القدر وألفاظه ولم يفرق بينهما[٢٤] بتفريق يحصر ويستنبط به الفرق بينهما وذلك في مواضع عدة من تفسيره من ذلك عند تفسير قوله تعالى:

(إلاَّ امرأته قدرناها مِنَ الغابرين) النمل ٥٧ أي قدّرنا أنها من الباقين في العذاب ، ومعنى (قدرنا) : قضينا ، قرأ الجمهور قدّرنا بالتشديد[٢٥]

وقال مشيراً إلى القدر:

أي : ذلك المستقرّ : تقدير الله [٢٦].

وقال: (إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) غافر ٧٨ أي : إذا قضى أمراً من الأمور فيكون حينئذٍ بلا تأخير[٢٧]

وبين معنى القدر المقدر تقديرا وهو مؤكد بالمصدر

(فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) أي : قدّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد

قدّر ، فهدى ، وأضلّ فاكتفى بأحدهما ، وفي تفسير الآية أقوال غير ما ذكرنا . والأولى عدم تعيين فرد ، أو أفراد مما يصدق عليه قدّر ، وهدى إلا بدليل يدلّ عليه ، ومع عدم الدليل يحمل على ما يصدق عليه معنى الفعلين ، إما على البدل ، أو على الشمول ، والمعنى : قدّر أجناس الأشياء وأنواعها ، وصفاتها ، وأفعالها ، وأقوالها ، وآجالها ، فهدى كل واحد منها إلى ما يصدر عنه وينبغي له ، ويسره لما خلق له ، وألهمه إلى أمور دينه ودنياه[٢٨] .

أما لفظ القضاء فقد فصل معناه وبين أنه أحد معاني قد يراد بها القدر وما قضاه الله بحسب السياق في الآيات الواردة فقال في هذا الشأن:

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاة) النساء : ١٠٣ . ولكنه ها هنا بمعنى الأمر ، وهو أحد معاني القضاء ، والأمر لا يستلزم ذلك ، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه ، ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده ، وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين ، ومن معاني مطلق القضاء معانٍ أخر غير هذين المعنيين ، كالقضاء بمعنى : الخلق ، ومنه (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

سموات) فصلت : ١٢ وبمعنى الإرادة كقوله : (إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) آل عمران : ٤٧ وبمعنى العهد كقوله : (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر)[٢٩]

وذهب إلى أن القضاء في بعض الآيات يأتي بمعنى الأمر والإلزام الشرعي لا القدري ، فقال في هذا السياق:

(قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ)[٣٠] أي ما صحّ ولا استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين... ومعنى الآية : أنه لا يحلّ لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمراً أن يختار من أمر نفسه ما شاء ، بل يجب عليه أن يذعن للقضاء ، ويوقف نفسه تحت ما قضاه الله عليه واختاره له[٣١]

وبين في موضع آخر إن القضاء هو القدر المقدر والأجل المضروب:

فيمسك التي قضى عليها الموت ، ولا يردّها إلى الجسد الذي كانت فيه ، ويرسل الأخرى بأن يعيد عليها إحساسها . قيل : ومعنى (يَتَوَفَّى الأنفس عِندَ مَوْتِهَا) الزمر ٤٢ : هو على حذف مضاف ، أي : عند موت أجسادها .. قرأ الجمهور : (قضى) مبنياً للفاعل ، أي : قضى الله عليها الموت[٣٢]

الفصل الخامس: مراتب القدر

مما علم عند أهل السنة باستقراء نصوص الوحيين أن القدر له مراتب أربعة هي العلم والكتابة والمشيئة والخلق[٣٣].

ولكن العلامة الشوكاني لم يشر إلى هذه المراتب تحديدا وإنما تناولها في تفسيره كغيره من علماء التفسير ومن ذلك مرتبة العلم.

المبحث الأول:

العلم

قال في تأويل قول الله تعالى:

(وَلَوْ عَلِمَ الله فِيهِمْ) أي : في هؤلاء الصمّ البكم (خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ) الأنفال ٢٣ سماعاً ينتفعون به ، ويتعقلون عنده الحجج والبراهين . قال الزجاج (لأَسْمَعَهُمْ) جواب كل ما سألوا عنه . وقيل : (لأَسْمَعَهُمْ) كلام الموتى الذين طلبوا إحياءهم ، لأنهم طلبوا إحياء قصيّ بن كلاب وغيره؛

ليشهدوا بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم (وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ) لأنه قد سبق في علمه أنهم لا يؤمنون[٣٤]

وأكد سعة ويبق علم الله تعالى في موضع آخر

(وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلا أَكْبَرَ) يونس ٦١ لعطف على لفظ مثقال ، وانتصبا لكونهما ممتنعين ، ويجوز أن يكون العطف على ذرة؛ وقيل : انتصابهما بلا التي لنفي الجنس ، والواو للاستئناف ، وليس من متعلقات وما يعزب ، وخبر لا (إِلاَّ فِي كتاب) والمعنى : ولا أصغر من مثقال الذرّة ولا أكبر منه إلا وهو في كتاب مبين ، فكيف يغيب عنه؟ وقرأ يعقوب وحمزة برفع أصغر وأكبر ، ووجه ذلك أنه معطوف على محل من مثقال ، ومحله الرفع ، وقد أورد على توجيه النصب والرفع على العطف على لفظ مثقال ومحله ، أو على لفظ ذرّة إشكال ، وهو أنه يصير تقدير الآية : لا يعزب عنه شيء في الأرض ، ولا في السماء إلا في كتاب ، ويلزم منه أن يكون ذلك الشيء الذي في الكتاب خارجاً عن علم الله وهو محال[٣٥]

ونقل عن القرطبي المفسر ما يؤكد علم الله السابق

قال القرطبي : واختلف العلماء في تأويل هذه الآية ، فقيل : هي عامة ومعناها الخصوص فيمن سبقت عليه كلمة العذاب ، وسبق في علم الله أنه يموت على كفره . أراد الله تعالى أن يعلم الناس أن فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحداً . وقال ابن عباس والكلبي : نزلت في رؤساء اليهود حييّ بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظرائهما . وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ، والأول أصح ، فإن من عين أحداً فإنما مثل بمن كشف الغيب بموته على الكفر انتهى[٣٦]

وقال مقررا هذا:

(والله أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) قرأ أبو بكر ، وابن عامر بضم التاء ، فيكون من جملة كلامها ، ويكون متصلاً بما قبله ، وفيه معنى التسليم لله ، والخضوع ، والتنزيه له أن يخفى عليه شيء . وقرأ الجمهور (وضعت) ، فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته ، والتفخيم لشأنه ، والتجليل لها حيث وقع منها التحسر ، والتحزن ، مع أن هذه الأنثى التي وضعتها سيجعلها الله ، وابنها آية للعالمين ، وعبرة للمعتبرين ، ويختصها بما لم يختص به أحداً . وقرأ ابن عباس : «بما وضعت» بكسر التاء على أنه خطاب من الله سبحانه لها ، أي

: إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب ، وما علم الله فيه من الأمور التي تتقاصر عنها الأفهام ، وتتضافر عندها العقول[٣٧]

وقال كذلك:

(وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ) الأنعام ٣٥ ، كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يكبر عليه إعراض قومه ، ويتعاظمه ، ويحزن له ، فبين له الله سبحانه أن هذا الذي وقع منهم من توليهم عن الإجابة له ، والإعراض عما دعا إليه ، هو كائن لا محالة لما سبق في علم الله عزّ وجلّ[٣٨]

وقال مقرراً سابق علم الله:

(وَمَا تُغْنِى الآيات والنذر) يونس ١٠١ أي : ما تنفع على أن ما نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية : أي : أيّ شيء ينفع ، والآيات هي التي عبر عنها بقوله : (مَاذَا فِي السموات والأرض) والنذر : جمع نذير ، وهم : الرسل أو جمع إنذار ، وهو المصدر (عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ) في علم الله سبحانه؛ والمعنى : أن من كان هكذا لا يجدى فيه شيء ، ولا يدفعه عن الكفر دافع[٣٩] .

وقال في تفسير قوله تعالى:

(وعلى أُمَمٍ مّمَّن مَّعَكَ) يعني : ممن لم يولد ، أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة (وَأُمَمٌ سَنُمَتّعُهُمْ) هود ٤٨ يعني : متاع الحياة الدنيا (ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة [٤٠].

وقال في مسألة علم الله السابق بالحوادث:

(إِنَّ رَبّى بكيدهن عَلِيمٌ) يوسف ٥٤ فجعل علم الله سبحانه بما وقع عليه من الكيد منهنّ مغنياً عن التصريح[٤١] .

وقال:

(وَكُلَّ إنسان ألزمناه طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ) الإسراء ١٣ أي : ما طار له في علم الله ، وفي عنقه عبارة عن اللزوم ، كلزوم القلادة العنق من بين ما يلبس[٤٢]

وقال:

(فليأتنا بآية) وهذا جواب شرط محذوف أي : إن لم يكن كما قلنا : فليأتنا بآية (كَمَا أُرْسِلَ الأولون) الأنبياء ٥ أي كما أرسل موسى بالعصا وغيرها ، وصالح بالناقة ، ومحل الكاف الجرّ صفة لآية ، ويجوز أن يكون نعت مصدر محذوف ، وكان سؤالهم هذا سؤال تعنت ، لأن الله سبحانه قد أعطاهم من الآيات ما يكفي ، ولو علم الله سبحانه أنهم يؤمنون إذا أعطاهم ما يقترحوه لأعطاهم ذلك(٤٣)

وقال:

قد تبين أن الكلمات هاهنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء؛ لأنه جلّ وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السماوات والأرض من شيء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذرّ ، وعلم الأجناس كلها ، وما فيها من شعرة وعضو وما في الشجرة من ورقة ، وما فيها من ضروب الخلق (٤٤).

المبحث الثاني: الكتابة

تناول العلامة الشوكاني المرتبة الثانية من مراتب القدر وأثبتها عند تفسير الآيات التي ذكرت أن الله تعالى علم ما في الكون ثم كتبه ، وكذلك أثبت ما يسميه أهل العلم الكتابة الحولية ، فعند تأويل قوله تعالى:

(الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ) المائدة ٢١ أي : قسمها وقدّرها لهم في سابق علمه(٤٥)

وفي آية أخرى صريحة في هذا الباب أوردها

(لَّوْلاَ كتاب مّنَ الله سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) الأنفال ٦٨ اختلف المفسرون في هذا الكتاب الذي سبق ما هو؟ على أقوال : الأوّل ما سبق في علم الله من أنه سيحلّ لهذه الأمة الغنائم بعد أن كانت محرّمة على سائر الأمم . والثاني : أنه مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر ، كما في الحديث الصحيح " إن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " القول الثالث هو : أنه لا يعذبهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم كما قال سبحانه :(وَمَا كَانَ الله لِيُعَذّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ) الأنفال : ٣٣ . القول الرابع : أنه لا يعذب أحداً بذنب فعله جاهلاً لكونه ذنباً . القول الخامس : أنه ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناب الكبائر . القول السادس : أنه لا يعذب أحداً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم

النهي ، ولم يتقدّم نهي عن ذلك . وذهب ابن جرير الطبري إلى أن هذه المعاني كلها داخلة تحت اللفظ[٤٦]

وفي قوله تعالى:

(لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا) التوبة ٥١ أي : في اللوح المحفوظ ، أو في كتابه المنزّل علينا ، وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدّره الله كائن ، وأن كل ما ناله من خير أو شرّ إنما هو بقدر الله وقضائه ، هانت عليه المصائب ، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة[٤٧]

وبين في قوله تعالى ذلك:

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ : (قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا) قال : إلا ما قضى الله لنا[٤٨] .

وقوله : (كتابا) مصدر مؤكد لما قبله؛ لأن معناه كتب الله الموت كتاباً . والمؤجل : المؤقت الذي لا يتقدّم على أجله ، ولا يتأخر[٤٩]

وفي قوله تعالى بين:

(يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مّنَ الكتاب) الأعراف ٣٧ أي مما كتب الله لهم من خير وشرّ . وقيل : ينالهم من العذاب بقدر كفرهم . وقيل : الكتاب هنا القرآن لأن عذاب الكفار مذكور فيه . وقيل هو اللوح المحفوظ[٥٠] .

وذهب إلى أن الكتاب أجل مقدر:

(لِكُلّ أَجَلٍ كِتَابٌ) أي : لكل أمر مما قضاه الله ، أو لكل وقت من الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، والمعنى : لكل كتاب أجل أي : لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ، كقوله سبحانه : (لّكُلّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ) الأنعام : ٦٧ وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه ويختاره [٥١].

الكتابة الحولية:

أما الكتابة التي بيد الملائكة فهي مأخوذة من اللوح المحفوظ وقد أطلق عليها العلامة الشوكان م يسميه أهل العلم بالكتابة الحولية

ففي تأويل قوله تعالى: (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) الدخان ٤ قال: أنزل القرآن في ليلة القدر ، ونزل به جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم نجوماً لجواب الناس . وأخرج محمد بن نصر ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عنه في قوله : (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) قال : يكتب من أمّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق وموت ، وحياة ، ومطر ، حتى يكتب الحاج : يحج فلان ، ويحج فلان[٥٢]

وقال في هذا الشأن أيضا:

(أنزلناه) للقرآن ، وإن لم يتقدّم له ذكر . أنزل جملة واحدة في ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، وكان ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم نجوماً على حسب الحاجة ، وكان بين نزول أوّله وآخره على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث وعشرون سنة ، وفي آية أخرى : (إِنَّا أنزلناه فِي لَيْلَةٍ مباركة) الدخان : ٣ وهي : ليلة القدر؛ وفي آية أخرى : (شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فِيهِ القرآن) البقرة : ١٨٥ وليلة القدر في شهر رمضان . قال مجاهد : في ليلة القدر ليلة الحكم . (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر) ليلة الحكم ، قيل سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقدّر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة . وقيل : إنها سميت بذلك لعظيم قدرها وشرفها ، من قولهم : لفلان قدر ، أي : شرف ومنزلة ، كذا قال الزهري . وقيل : سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً ، وثواباً جزيلاً . وقال الخليل : سميت ليلة القدر[٥٣]

المبحث الثالث: المشيئة

من مراتب القدر مرتبة المشيئة ، وتعني هذه المرتبة أن الله تعالى علم كل شيء ثم كتبه ثم شاءه ، ليبرزه إلى حيز الوجود ، وقد تناولها الشوكاني في تفسيره في مواطن كثيرة من ذلك قوله:

(إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) القصص الآية ٥٦ من الناس ، وليس ذلك إليك (ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَاء) هدايته (وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين)[٥٤]

ومن ذلك قوله:

{ ولو شئنا } مقدّرة بقول معطوف على المقدّر قبل قوله : { أبصرنا } أي ونقول لو شئنا ، ومعنى {ولكن حَقَّ القول مِنْي} أي نفذ قضائي وقدري وسبقت كلمتي { لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

الجنة والناس أَجْمَعِينَ } السجدة ١٣ هذا هو القول الذي وجب من الله وحقّ على عباده ونفذ فيه قضاؤه ، فكان مقتضى هذا القول أنه لا يعطي كلّ نفس هداها ، وإنما قضى عليهم بهذا؛ لأنه سبحانه قد علم أنهم من أهل الشقاوة ، وأنهم ممن يختار الضلالة على الهدى[٥٥] .

وذهب في موضع آخر إلى أن مشيئة الله مرتبطة بالهداية والتوفيق الموصل للحق فلو لم يشأ الله ذلك لعبده لما هداه:

{ والله يَهْدِي مَن يَشَاء } بتوفيقه للنظر الصحيح ، وإرشاده إلى التأمل الصادق { إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ } إلى طريق مستوي لا عوج فيه ، فيتوصل بذلك إلى الخير التام ، وهو نعيم الجنة[٥٦] .

وقال في صريح آيات المشيئة:

{ وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاء الله رَبُّ العالمين } التكوير ٢٩ أي : وما تشاءون الاستقامة إلاّ أن يشاء الله تلك المشيئة ، فأعلمهم سبحانه أن المشيئة في التوفيق إليه ، وأنهم لا يقدرون على ذلك إلاّ بمشيئة الله وتوفيقه ، ومثل هذا قوله سبحانه : { وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله } يونس : ١٠٠ وقوله : { وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملئكة وَكَلَّمَهُمُ الموتى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيء قُبُلاً مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ إِلاَّ أَن يَشَاء الله } الأنعام : ١١١ وقوله : { إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء } القصص : ٥٦ والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة[٥٧] .

وقال:

{ والله يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء } البقرة ١٠٥ الآية ، وقوله { والله ذُو الفضل العظيم } أي : صاحب الفضل العظيم ، فكيف لا تودون أن يختص برحمته من يشاء من عباده[٥٨] .

وقال في تمحض المشيئة الإلهية له تعالى:

(لَيْسَ لَكَ مِنَ الأمر شَيء) جملة اعتراضية بين المعطوف ، والمعطوف عليه ، أي : أن الله مالك أمرهم يصنع بهم ما يشاء من الإهلاك ، أو الهزيمة ، أو التوبة إن أسلموا ، أو العذاب ، فقوله : (أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذّبَهُمْ) عطف على قوله ، أو يكبتهم ، وقال الفراء : إنّ « أو » بمعنى « إلا أن » ، بمعنى ليس لك من الأمر شيء إلا أن يتوب عليهم ، فتفرح بذلك ، أو يعذبهم فتشفى بهم .

قوله : (وَلِلَّهِ مَا فِي السموات وَمَا فِي الأرض) كلام مستأنف لبيان سعة ملكه (يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء) أن يغفر له : (وَيُعَذّبُ مَن يَشَاء) أن يعذبه يفعل في ملكه ما يشاء ، ويحكم ما يريد (لاَّ يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ)[٥٩]

وقال في ذلك أيضا:

(إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء)(النساء ٤٨ هذا الحكم يشمل جميع طوائف الكفار من أهل الكتاب وغيرهم ، ولا يختص بكفار أهل الحرب ، لأن اليهود قالوا عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله ، وقالوا ثالث ثلاثة . ولا خلاف بين المسلمين أن المشرك إذا مات على شركه لم يكن من أهل المغفرة التي تفضل الله بها على غير أهل الشرك حسبما تقتضيه مشيئته؛ وأما غير أهل الشرك من عصاة المسلمين ، فداخلون تحت المشيئة يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء . قال ابن جرير : قد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله عزّ وجلّ إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه ما لم تكن كبيرته شركاً بالله عزّ وجلّ . وظاهره أن المغفرة منه سبحانه تكون لمن اقتضته مشيئته تفضلاً منه ورحمة ، وإن لم يقع من ذلك المذنب توب[٦٠]

المبحث الرابع: الخلق

من مراتب القدر التي بينها أهل العلم مرتبة الخلق ، وقد وردت آيات الخلق في كتاب الله تعالى في مواضع كثيرة وقد تناولها العلامة مثبتا هذه المرتبة من مراتب القدر من ذلك قوله:

(وَلِلَّهِ مُلْكُ السموات والأرض وَمَا بَيْنَهُمَا) المائدة ١٧ أي : ما بين النوعين من المخلوقات . قوله : (يَخْلُقُ مَا يَشَاء) جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته ، وأنه يقدر على كل شيء لا يستصعب عليه شيء [٦١].

وقال:

(وَكُلُّ شَيء عِندَهُ بِمِقْدَارٍ) أي : كل شيء من الأشياء التي من جملتها الأشياء المذكورة عند الله سبحانه بمقدار ، والمقدار : القدر الذي قدّره الله .

وهو معنى قوله سبحانه : (إِنَّا كُلَّ شَيء خلقناه بِقَدَرٍ) القمر : ٤٩ أي : كل الأشياء عند الله سبحانه جارية على قدره الذي قد سبق وفرغ منه ، لا يخرج عن ذلك شيء [٦٢].

وقال في شأن خلق الموت:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا) أي : قضى أسباب الموت والحياة ، ولا يقدر على ذلك غيره ، وقيل : خلق نفس الموت والحياة ، كما في قوله : (خَلَقَ الموت والحياة)[٦٣]

وقال:

(إِلاَّ أُمَمٌ أمثالكم) أي جماعات مثلكم خلقهم الله كما خلقكم ، ورزقهم كما رزقكم داخلة تحت علمه وتقديره وإحاطته بكل شيء[٦٤]

وقال:

وجملة (لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله) تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة ، أي هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه. وقيل : هو نفي معناه النهي ، أي لا تبدّلوا خلق الله[٦٥]

الفصل السادس: معاني القدريات والشرعيات في آيات الكتاب

قسم العلماء المحققون من أهل السنة والجماعة ألفاظ القدر الواردة في القرآن والسنة واستنبطوا منها أن دلالتها بحسب سياقها ، فتارة تدل على القدر والحكم الكوني اللازم المتحقق ، وتارة تدل على أنه أمر شرعي يتعلق بمحبة الله ورضاه وقد يتحقق وقد لا يتحقق ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

" وقد فرق الله في كتابه بين القسمين بين من قام بكلماته الكونيات وبين من اتبع كلماته الدينيات وذلك في أمره وإرادته وقضائه وحكمه وإذنه وبعثه وإرساله "[٦٦]

وبالنظر في تفسير الشوكاني نجده فسر هذه المواضع كما هو معلوم عند أهل السنة والجماعة ومن ذلك:

كلمات الله

(مَّا نَفِدَتْ كلمات الله) لقمان ٢٧ أي كلماته التي هي عبارة عن معلوماته . قال أبو عليّ الفارسي : المراد بالكلمات والله أعلم : ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود ، ووافقه القفال فقال : المعنى : أن الأشجار لو كانت أقلاماً والبحار مداداً ، فكتب بها عجائب صنع الله الدالة على قدرته ووحدانيته لم تنفد تلك العجائب . قال القشيري : ردّ القفال معنى الكلمات إلى المقدورات . وحمل الآية على الكلام القديم أولى . قال النحاس : قد تبين أن الكلمات

هاهنا يراد بها العلم وحقائق الأشياء؛ لأنه جلّ وعلا علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق في السماوات والأرض من شيء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذرّ ، وعلم الأجناس كلها ، وما فيها من شعرة وعضو وما في الشجرة من ورقة ، وما فيها من ضروب الخلق [٦٧].

الإرادة

ذهب الشوكاني أن الإرادة الواردة في القرآن لها معان منها أنها القدر المبرم فقال:

(مِنْهُمْ مَّنْ آمن وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء الله) عدم اقتتالهم بعد هذا الاختلاف (مَا اقتتلوا ولكن الله يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) البقرة ٢٥٣ لا رادّ لحكمه ، ولا مبدّل لقضائه ، فهو يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد[٦٨] .

وقال أيضا في الإرادة الكونية:

(وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ) أي : ضلالته (فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً) المائدة ٤١ أي : فلا تستطيع دفع ذلك عنه ولا تقدر على نفعه وهدايته ، وهذه الجملة مستأنفة مقررة لما قبلها ، وظاهرها العموم ويدخل فيها هؤلاء الذين سياق الكلام معهم دخولاً أوّليا ، والإشارة بقوله : (أولئك) إلى من تقدم ذكرهم ، من الذين قالوا آمنا بأفواههم ومن الذين هادوا ، وهو مبتدأ وخبره الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم : أي لم يرد تطهيرها من أرجاس الكفر والنفاق ، كما طهّر قلوب المؤمنين[٦٩]

وقال:

(فَمَن يُرِدِ الله أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام) الأنعام ١٢٥ الشرح : الشق وأصله التوسعة ، وشرحت الأمر بينته وأوضحته ، والمعنى : من يرد الله هدايته للحق يوسع صدره حتى يقبله بصدر منشرح ، (وَمَن يُرِدِ) إضلاله (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيّقاً حَرَجاً)[٧٠]

ومن النوع الثاني من الإرادة الذي هو خارج القدر وهو الأمر الشرعي فقال:

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاة) النساء : ١٠٣ . ولكنه ها هنا بمعنى الأمر ، وهو أحد معاني القضاء ، والأمر لا يستلزم ذلك ، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه ، ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده ، وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين ، ومن معاني مطلق القضاء معانٍ أخر غير هذين المعنيين ، كالقضاء بمعنى : الخلق ، ومنه (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات) فصلت : ١٢ . وبمعنى الإرادة كقوله : (إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ)

آل عمران : ٤٧ وبمعنى العهد كقوله : (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر) القصص ٤٤

القضاء

كذلك فرق الشوكاني بين ألفاظ القضاء الواردة في القرآن هل هي بمعنى القدر على الإطلاق ؟ وبين أنها تحمل معان عدة فقال:

(فَإِذَا قضى أَمْراً) من الأمور التي يريدها (فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) من غير توقف ، وهو : تمثيل لتأثير قدرته في المقدورات عند تعلق إرادته بها[٧١]

وقال في موضع آخر أن قضى تأتي بمعنى خلق:

والضمير في : « قضاهنّ » إما راجع إلى السماء على المعنى؛ لأنها سبع سماوات ، أو مبهم مفسر بسبع سماوات ، وانتصاب (سبع سماوات) على التفسير ، أو على البدل من الضمير . وقيل : إن انتصابه على أنه المفعول الثاني لقضاهنّ؛ لأنه مضمن معنى صيرهنّ . وقيل : على الحال ، أي : قضاهنّ حال كونهنّ معدودات بسبع ، ويكون قضى بمعنى : صنع[٧٢]

كذلك بحديث فيه لفظ القضاء الذي هو بمعنى الخلق التقدير الأزلي السابق عند تأويل قوله تعالى:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) الشمس ٨ قال : من الخير والشرّ . وأخرج الحاكم وصححه عنه أيضاً : (فَأَلْهَمَهَا) قال : ألزمها فجورها وتقواها[٧٣] . وأخرج أحمد ، وعبد بن حميد ، ومسلم ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه عن عمران بن حصين؛ أن رجلاً قال : يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس اليوم ، ويكدحون فيه ، شيء قد قضي عليهم ، ومضى في قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما أتاهم نبيهم ، واتخذت عليهم به الحجة ، قال : " بل شيء قد قضي عليهم " قال : فلم يعملون إذن؟ قال : " من كان الله خلقه لواحدة من المنزلتين يهيئه لعملها[٧٤] ، وتصديق ذلك في كتاب الله : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) وسيأتي في السورة التي بعد هذه نحو هذا الحديث[٧٥]

هذا من حيث القضاء الكوني الذي هو بمعنى القدر المتحقق ، أما ألفاظ القضاء الأخرى فتأتي بمعنى التكاليف الشرعية أو نحو ذلك مما لا يندرج تحت القدر الكوني الواجب ، من ذلك قول الشوكاني:

(ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ) المراد بالقضاء هنا هو : التأدية ، أي ليؤدوا إزالة وسخهم ، لأن التفث هو : الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار[٧٦]

ومن ذلك القضاء الشرعي ما أورده عند قوله تعالى:

(فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصلاة) النساء : ١٠٣ . ولكنه ها هنا بمعنى الأمر ، وهو أحد معاني القضاء ، والأمر لا يستلزم ذلك ، فإنه سبحانه قد أمر عباده بجميع ما أوجبه ، ومن جملة ذلك إفراده بالعبادة وتوحيده ، وذلك لا يستلزم أن لا يقع الشرك من المشركين ، ومن معاني مطلق القضاء معانٍ أخر غير هذين المعنيين ، كالقضاء بمعنى : الخلق ، ومنه (فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سموات) فصلت : ١٢ . وبمعنى الإرادة كقوله : (إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ) آل عمران : ٤٧ وبمعنى العهد كقوله : (وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَا إلى مُوسَى الأمر)[٧٧]

الحكم

ومن أنواع القدريات والشرعيات لفظ الحكم فتارة يرد بمعنى القدر ، وقد أورد الشوكاني من النوع الأول قوله تعالى:

(إِنَّ الله قَدْ حَكَمَ بَيْنَ العباد) غافر ٤٨أي : قضى بينهم بأن فريقاً في الجنة ، وفريقاً في السعير[٧٨] .

ومن النوع الثاني وهو الحكم الشرعي

(وَأَنِ احكم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ الله وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ) قال : فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما في كتابنا[٧٩] .

وكذلك أورد في تفسيره هذه الآية وهي من الشرعيات:

(إِنِ الحكم إِلاَّ لله) لا لغيره ولا يشاركه فيه مشارك في ذلك[٨٠]

الكتاب

وهذا اللفظ قد يرد في كتاب الله من النوع الأول وهو القدر المحتم ، وقد فسره على ما ذكرنا فقال:

الكتب بمعنى الحكم كقوله : (كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي) المجادلة : ٢١ أي : حكم . وقوله صلى الله عليه وسلم في قصة العسيف : « لأقضين بينكما بكتاب الله »[٨١] ثم قضى بالرجم

، وليس الرجم في كتاب الله ، فالمعنى : لأقضينّ بينكما بحكم الله ، وبهذا يندفع ما قيل : إن الصحف هي الكتب[٨٢]

كما أورد تأويله لآية الكتابة:

وقال صاحب النظم : الكتب بمعنى الحكم كقوله : (كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي) المجادلة : ٢١ أي : حكم [٨٣]

وكذلك:

(كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلِي) المجادلة : ٢١ وقال الفراء : سبقت كلمتنا بالسعادة لهم ،[٨٤]

وتارة يأتي بمعنى الحكم الشرعي كقوله تعالى:

(كتاب الله عَلَيْكُمْ) النساء ٢٤ منصوب على المصدرية ، أي : كتب الله ذلك عليكم كتاباً [٨٥].

الختم

وهو من حقائق القدر وألفاظه المشهورة في القرآن ويراد به الختم الكوني المقدر.

عن ابن مسعود قال : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فلا يعقلون ولا يسمعون ، وجعل على أبصارهم : يعني أعينهم غشاوة فهم لا يبصرون . وروى ذلك السدي عن جماعة من الصحابة . وأخرج ابن جرير ، عن ابن جريج قال : الختم على القلب والسمع ، والغشاوة على البصر ، قال الله تعالى : (فَإِن يَشَإِ الله يَخْتِمْ على قَلْبِكَ) الشورى : ٢٤ وقال : (وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غشاوة) الجاثية : ٢٣ . قال ابن جرير في معنى الختم : والحق عندي في ذلك ما صحّ نظيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر إسناداً متصلاً بأبي هريرة ، قال : قال رسول الله : " إنّ المؤمن إذا أذنب ذنباً كان نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستعتب صقل قلبه ، وإن زاد زادت حتى تغلق قلبه" فذلك الران الذي قال الله : (كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ) »[٨٦] . وقد رواه من هذا الوجه الترمذي وصححه ، والنسائي . ثم قال ابن جرير : فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله سبحانه والطبع ، فلا يكون إليها مسلك ، ولا للكفر منها مخلص ، فذلك هو : الختم الذي ذكره الله في قوله : (خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ) البقرة ٧ نظير الطبع ، والختم على ما تدركه الأبصار

من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بفضّ ذلك عنها ثم حلها ، فلذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم إلا بعد فضّ خاتمه ، وحلّ رباطه عنها[٨٧] .

(وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ) التوبة ٨٧ هو كقوله : (خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ) وقد مرّ تفسيره (فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ) شيئاً مما فيه نفعهم وضرهم ، بل هم كالأنعام[٨٨] .

الأمر

وهو من أنواع اللفظ المشترك بين القدري والشرعي وقد أورد الشوكاني ذلك فقال:

وقوله : (حتى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ) البقرة ١٠٩ هو غاية ما أمر الله سبحانه به من العفو والصفح أي : افعلوا ذلك إلى أن يأتي إليكم الأمر من الله سبحانه في شأنهم بما يختاره ويشاؤه ، وما قد قضى به في سابق علمه[٨٩]

وكذلك من هذا النوع القدري الكوني المتحقق:

(فَالْتَقَى الماء على أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ) القمر ١٢ أي : التقى ماء السماء وماء الأرض على أمر قد قضي عليهم ، أي : كائناً على حال قدّرها الله وقضى بها[٩٠]

ومن النوع الثاني من الشرعيات التي أمر الله بها ولا تعني القدر الكوني المتحقق بل الأمر الشرعي الدائر بين القبول والرد ما أورده :

(كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) عبس ٢٣ كلا ردع ، وزجر للإنسان الكافر أي : ليس الأمر كما يقول . ومعنى : لما يقض ما أمره ، لم يقض ما أمره الله به من العمل بطاعته ، واجتناب معاصيه[٩١]

وهذه الآية لم يذكر فيها من أي النوعين ولعل أسلوب الشوكاني في بيانها أنه يميل إلى أنها من النوع الأول قال:

وقوله : (مّن كُلّ أَمْرٍ) أي : من أجل كلّ أمر من الأمور التي قضى الله بها في تلك السنة[٩٢]

الفصل السابع: الهدى والضلال

من ركائز الاعتقاد في الإيمان بالقدر أن الله تعالى كتب الهدى والضلال قبل خلق المخلوقات وأن ذلك من القدر السابق فمن كتب الله له الهداية يسرها له في الدنيا وكذلك الإضلال[٩٣] ، وقد أورد العلامة الشوكاني في تفسيره الكثير من ذلك ، قال رحمه الله:

(والذى قَدَّرَ فهدى)(الأَعلى : ٢ ، ٣ وفعل الهداية يجيء متعدياً باللام وإلى ، وهما بمعنى واحد . روي ذلك عن الزجاج . والمعنى : قل لهم يا محمد ، هل من شركائكم من يرشد إلى دين الإسلام ، ويدعو الناس إلى الحق؟ فإذا قالوا لا ، فقل لهم : الله يهدي للحق دون غيره ، ودليل ذلك ما تقدّم من الأدلة الدالة على اختصاصه سبحانه بهذا ، وهداية الله سبحانه لعباده إلى الحق هي بما نصبه لهم من الآيات في المخلوقات ، وإرساله للرسل ، وإنزاله للكتب ، وخلقه لما يتوصل به العباد إلى ذلك من العقول والأفهام ، والأسماع والأبصار ، والاستفهام في قوله : (أَفَمَن يَهْدِى إِلَى الحق أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن مَّن لاَّ يَهِدِّى إِلاَّ أَن يهدى) يونس ٣٥ للتقرير وإلزام الحجة[٩٤] .

وقال فيه أيضا:

(ثُمَّ هدى) : أنه سبحانه هداهم إلى طرق الانتفاع بما أعطاهم فانتفعوا بكل شيء فيما خلق له ، وأما على القراءة الآخرة ، فيكون الفعل صفة للمضاف أو للمضاف إليه ، أي أعطى كل شيء خلقه الله سبحانه ولم يخله من عطائه ، وعلى هذه القراءة يكون المفعول الثاني محذوفاً ، أي أعطى كل شيء خلقه ما يحتاج إليه ، فيوافق معناها معنى القراءة الأولى .

(قَالَ فَمَا بَالُ القرون الاولى) طه ٥١ لما سمع فرعون ما احتج به موسى في ضمن هذا الكلام على إثبات الربوبية كما لا يخفى من أن الخلق والهداية ثابتان بلا خلاف ، ولا بدّ لهما من خالق وهادٍ ، وذلك الخالق والهادي هو الله سبحانه لا ربّ غيره[٩٥].

وقال مبينا أن الهدى هو قدر خلقي قدره الله تعالى قبل خلق الكون:

(إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ) القصص : ٥٦ فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب ، ومنه قوله تعالى : (أولئك على هُدًى مّن رَّبّهِمْ) البقرة : ٥ وقوله : (ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء) القصص : ٥٦ انتهى[٩٦] .

وقال في حق من أضله الله أزلا:

(وَمَن يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ) أي : ضلالته (فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شَيْئاً) المائدة ٤١ أي : فلا تستطيع دفع ذلك عنه ولا تقدر على نفعه وهدايته[٩٧]

وقال كذلك في مسألة الإضلال:

(أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ الله) النساء ٨٨ للتقريع والتوبيخ ، وفيه دليل على أن من أضله الله لا تنجع فيه هداية البشر (إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَآء) القصص : ٥٦ قوله : (وَمَن يُضْلِلِ الله فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً) أي : طريقاً إلى الهداية .

قوله : (وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء)[٩٨] هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هؤلاء المنافقين ، وإيضاح أنهم يودّون أن يكفر المؤمنون كما كفروا ، ويتمنوا ذلك عناداً وغلوّاً في الكفر وتمادياً في الضلال[٩٩]

وقال كذلك في الإضلال الأزلي:

(مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السمع) هود ٢٠ أي : أفرطوا في إعراضهم عن الحق ، وبغضهم له ، حتى كأنهم لا يقدرون على السمع ولا يقدرون على الإبصار ، لفرط تعاميهم عن الصواب ,، . قال الفراء : ما كانوا يستطيعون السمع ، لأن الله أضلهم في اللوح المحفوظ[١٠٠]

وقال في شأن الشقاوة الأزلية:

(وعلى أُمَمٍ مّمَّن مَّعَكَ) يعني : ممن لم يولد ، أوجب الله لهم البركات لما سبق لهم في علم الله من السعادة (وَأُمَمٌ سَنُمَتّعُهُمْ) يعني : متاع الحياة الدنيا (ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) هود ٤٨ لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة [١٠١].

وقال في حق من هداهم الله تعالى قدرا سابقاً:

(فَرِيقًا هدى) منتصب بفعل يفسره ما بعده . وقيل : منتصب على الحال من المضمر في تعودون ، أي تعودون فريقين : سعداء وأشقياء ، ويقويه قراءة أبيّ «فريقين فريقا هدى» ، والفريق الذي هداه الله هم : المؤمنون بالله المتبعون لأنبيائه ، والفريق الذي حقت عليه الضلالة : هم الكفار [١٠٢].

وقال ايضا:

(كذلك يَجْعَلُ الله الرجس عَلَى الذين لاَ يُؤْمِنُونَ) الأنعام ١٢٥ أي مثل ذلك الجعل الذي هو جعل الصدر ضيقاً حرجاً يجعل الله الرجس . والرجس في اللغة : النتن ، وقيل هو العذاب ،

وقيل : هو الشيطان يسلطه الله عليهم . وقيل : هو ما لا خير فيه؛ والمعنى الأوّل هو المشهور في لغة العرب ، وهو مستعار لما يحلّ بهم من العقوبة وهو يصدق على جميع المعاني المذكورة . والإشارة بقوله : (وهذا صراط رَبّكَ) إلى ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن معه من المؤمنين ، أي هذا طريق دين ربك لا اعوجاج فيه . وقيل الإشارة إلى ما تقدّم مما يدل على التوفيق والخذلان ، أي : هذا هو عادة الله في عباده يهدي من يشاء ويضل من يشاء[١٠٣]

وقال:

وظلم أنفسهم (مَن يَهْدِ الله فَهُوَ المهتدي) لما أمر به وشرعه لعباده (وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون) الأعراف ١٧٨ الكاملون في الخسران ، من هداه فلا مضلّ له ، ومن أضله فلا هادي له ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن [١٠٤].

ثم أثنى سبحانه عليهم بقوله : (مَن يَهْدِ الله) أي : إلى الحق (فَهُوَ المهتد) الذي ظفر بالهدى وأصاب الرشد والفلاح (وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّا مُّرْشِدًا) أي : ناصراً يهديه إلى الحق [١٠٥]

وجملة (مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ) مقررة لما قبلها ، أي إن هذه الغفلة منهم عن هذه الأمور الواضحة البينة ليس إلا لكونهم ممن أضله الله ، ومن يضلله فلا هادي له ، أي فلا يوجد من يهديه إلى الحق ، وينزعه عن الضلالة ألبتة (وَيَذَرُهُمْ فِي طغيانهم يَعْمَهُونَ) قرىء بالرفع على الاستئناف ، وبالجزم عطفاً على محل الجزاء [١٠٦].

نوعا الهداية:

من الأمور العلمية التي تكلم عليها العلامة الشوكاني في مسألة الهدى أن الهداية الواردة في القرآن الكريم على نوعين:

هداية بمعنى القدر الكوني المضروب

وهداية بمعنى الدلالة والإرشاد ، قال في شأن النوع الأول مبينا:

(فَرِيقًا هدى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضلالة) الأعراف : ٣٠ . وفي هذه الآية التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته ، واجتناب الشيطان ، وكل ما يدعو إلى الضلال ، وأنهم بعد ذلك فريقان : فمنهم من هدى ، ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فكان في ذلك دليل على أن أمر

الله سبحانه لا يستلزم موافقة إرادته فإنه يأمر الكل بالإيمان ، ولا يريد الهداية إلاّ للبعض ، إذ لو أرادها للكل لم يكفر أحد[١٠٧]

وقال في شأن النوع الثاني:

(وَلِكُلّ قَوْمٍ هَادٍ) الرعد : ٧ وقال : (وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ) الشورى : ٥٢ فأثبت لهم الهدى الذي معناه الدلالة والدعوة والتنبيه ، وتفرد سبحانه بالهدى الذي معناه التأييد والتوفيق ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ) القصص : ٥٦ فالهدى على هذا يجيء بمعنى خلق الإيمان في القلب ، ومنه قوله تعالى : (أولئك على هُدًى مّن رَّبّهِمْ)[البقرة : ٥ وقوله : (ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء) انتهى [١٠٨].

وقال في ذات الشأن:

(وَمَا أَكْثَرُ الناس وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ) يوسف ١٠٣ أي : وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد ، أو أكثر الناس على العموم ، ولو حرصت على هدايتهم وبالغت في ذلك بمؤمنين بالله لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم ، يقال : حرص يحرص مثل ضرب يضرب ، وفي لغة ضعيفة حرص يحرص مثل حمد يحمد ، والحرص : طلب الشيء باجتهاد . قال الزجاج : ومعناه : وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم؛ لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء [١٠٩].

وقال:

ولكنك قد قمت بواجب البيان الذي أوجبه عليك القرآن ، والهداية بيد الخلاق العليم (إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَاء)[١١٠]

(والله يَهْدِي مَن يَشَاء) بتوفيقه للنظر الصحيح ، وإرشاده إلى التأمل الصادق (إلى صراط مُّسْتَقِيمٍ) إلى طريق مستوي لا عوج فيه ، فيتوصل بذلك إلى الخير التام ، وهو نعيم الجنة [١١١].

الفصل الثامن: خلق أفعال العباد

وهي من مسائل القدر الهامة التي يجب على المسلم اعتقادها ، فلا شيء يقع في كون الله بغير مشيئته وخلقه ومن ذلك ما يفعله العباد من أفعال [١١٢] ، قال العلامة الشوكاني مقررا هذا:

(إِنَّا كُلَّ شَيء خلقناه بِقَدَرٍ) قرأ الجمهور بنصب " كل " على الاشتغال . وقرأ أبو السماك بالرفع ، والمعنى : أن كل شيء من الأشياء خلقه الله سبحانه ملتبساً بقدر قدّره ، وقضاء قضاه سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه ، والقدر : التقدير [١١٣]

وقال أيضا في عمومية خلق الله:

(فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً) أي : قدّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد ، وهيأه لما يصلح له . قال الواحدي : قال المفسرون : قدر له تقديراً من الأجل والرزق ، فجرت المقادير على ما خلق[١١٤] .

وقال أيضا:

قوله : (الله خالق كُلّ شَىْء) من الأشياء الموجودة في الدنيا ، والآخرة كائناً ما كان من غير فرق بين شيء ، وشيء وقد تقدّم تفسير هذه الآية في الأنعام[١١٥]

وقال:

وجملة (لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله) الروم ٣٠ تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة ، أي هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه . وقيل : هو نفي معناه النهي ، أي لا تبدّلوا خلق الله . قال مجاهد وإبراهيم النخعي : معناه : لا تبديل لدين الله . قال قتادة وابن جبير والضحاك وابن زيد : هذا في المعتقدات . وقال عكرمة : إن المعنى : لا تغيير لخلق في البهائم بأن تخصى فحولها (ذلك الدين القيم) أي ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين القيم ، أو لزوم الفطرة هو الدين القيم (ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ) ذلك حتى يفعلوه ويعملوا[١١٦]

وقال في أشهر آية في هذا الباب مقررا اعتقاده في خلق الله تعالى لأفعال عباده:

(والله خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) الصافات ٩٦ في محل نصب على الحال من فاعل تعبدون ، و «ما» في (وَمَا تَعْمَلُونَ) موصولة ، أي : وخلق الذي تصنعونه على العموم ويدخل فيها الأصنام التي ينحتونها دخولاً أولياً ، ويكون معنى العمل هنا : التصوير ، والنحت ، ونحوهما ، ويجوز أن تكون مصدرية ، أي : خلقكم ، وخلق عملكم[١١٧]

الفصل التاسع: الفطرة

تعريف الفطرة وحقيقتها[١١٨]:

يعرف العلامة الشوكاني الفطرة في تفسيره عند تأويلها في آية الفطرة فيقول:

(فِطْرَةَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا) الروم ٣٠ الفطرة في الأصل : الخلقة ، والمراد بها هنا : الملة ، وهي الإسلام والتوحيد[١١٩]

وقال من حيث التعريف اللغوي لها أيضا:

وقال آخرون : هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها ، فإنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة . والفاطر في كلام العرب هو المبتدىء ، وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة ، وإهمال معناها شرعاً . والمعنى الشرعيّ مقدّم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع

هذا من حيث المعنى اللغوي أما معناها الاصطلاحي في أسهب في ذلك وخلص إلى القول أن الفطرة هي الإسلام.

(فِطْرَةَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا) الفطرة في الأصل : الخلقة ، والمراد بها هنا : الملة ، وهي الإسلام والتوحيد . قال الواحدي : هذا قول المفسرين في فطرة الله ، والمراد بالناس هنا : الذين فطرهم الله على الإسلام؛ لأن المشرك لم يفطر على الإسلام ، وهذا الخطاب وإن كان خاصاً برسول الله فأمته داخلة معه فيه . قال القرطبي باتفاق من أهل التأويل : والأولى حمل الناس على العموم من غير فرق بين مسلمهم وكافرهم ، وأنهم جميعاً مفطورون على ذلك لولا عوارض تعرض لهم فيبقون بسببها على الكفر كما في حديث أبي هريرة الثابت في الصحيح قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلاّ يولد على الفطرة »[١٢٠] وفي رواية : « على هذه الملة – ولكن أبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء؟ » ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : (فِطْرَةَ الله التي فَطَرَ الناس عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله) وفي رواية « حتى تكونوا أنتم تجدعونها »[١٢١] .

وسيأتي في آخر البحث ما ورد معاضداً لحديث أبي هريرة هذا ، فكل فرد من أفراد الناس مفطور ، أي مخلوق على ملة الإسلام ، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين ، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان ، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم ، وقول جماعة

من المفسرين ، وهو : الحق . والقول بأن المراد بالفطرة هنا : الإسلام هو مذهب جمهور السلف . وقال آخرون : هي البداءة التي ابتدأهم الله عليها ، فإنه ابتدأهم للحياة والموت والسعادة والشقاوة . والفاطر في كلام العرب هو المبتدىء ، وهذا مصير من القائلين به إلى معنى الفطرة لغة ، وإهمال معناها شرعاً . والمعنى الشرعيّ مقدّم على المعنى اللغوي باتفاق أهل الشرع ، ولا ينافي ذلك ورود الفطرة في الكتاب أو السنة في بعض المواضع مراداً بها المعنى اللغوي كقوله تعالى : (الحمد للَّهِ فَاطِرِ السموات والأرض)(فاطر : ١ أي خالقهما ، ومبتديهما ، وكقوله : (وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الذي فَطَرَنِي) يس : ٢٢ إذ لا نزاع في أن المعنى اللغوي هو هذا ، ولكن النزاع في المعنى الشرعي للفطرة ، وهو ما ذكره الأوّلون كما بيناه ، وانتصاب (فطرة) على أنها مصدر مؤكد للجملة التي قبلها . وقال الزجاج : فطرة منصوب بمعنى : اتبع فطرة الله ، قال : لأن معنى (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينَ) : اتبع الدين واتبع فطرة الله . وقال ابن جرير : هي مصدر من معنى (فأقم وجهك) لأن معنى ذلك : فطرة الله الناس على الدين..

وجملة (لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله) تعليل لما قبلها من الأمر بلزوم الفطرة ، أي هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها لا تبديل لها من جهة الخالق سبحانه . وقيل : هو نفي معناه النهي ، أي لا تبدّلوا خلق الله . قال مجاهد وإبراهيم النخعي : معناه : لا تبديل لدين الله . قال قتادة وابن جبير والضحاك وابن زيد : هذا في المعتقدات . وقال عكرمة : إن المعنى : لا تغيير لخلق في البهائم بأن تخصى فحولها (ذلك الدين القيم) أي ذلك الدين المأمور بإقامة الوجه له هو الدين القيم ، أو لزوم الفطرة هو الدين القيم (ولكن أَكْثَرَ الناس لاَ يَعْلَمُونَ) ذلك حتى يفعلوه ويعملوا(١٢٢)

كما بين في موضع آخر خصال الفطرة وأنها التوحيد والشريعة.

قوله : (بكلمات) قد اختلف العلماء في تعيينها ، فقيل : هي شرائع الإسلام ، وقيل ذبح ابنه ، وقيل أداء الرسالة ، وقيل : هي خصال الفطرة(١٢٣)

(وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيّرُنَّ خَلْقَ الله) النساء ١١٩ أي : ولآمرنهم بتغيير خلق الله ، فليغيرنه بموجب أمري لهم . واختلف العلماء في هذا التغيير ما هو؟ فقالت طائفة : هو الخصاء وفقء الأعين ، وقطع الآذان . وقال آخرون : إن المراد بهذا التغيير هو أن الله سبحانه خلق الشمس والقمر

والأحجار ، والنار ، ونحوها من المخلوقات لما خلقها له ، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة ، وبه قال الزجاج وقيل المراد بهذا التغيير : تغيير الفطرة التي فطر الله الناس عليها[١٢٤]

الأطفال والفطرة

يرى الشوكاني أن الأطفال يولدون على الفطرة وهي توحيد الله ويقول مستدلا:

(لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله) قال : دين الله (ذلك الدين القيم) قال : القضاء القيم . وأخرج عبد الرزاق ، وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن الأسود ابن سريع ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية إلى خيبر فقاتلوا المشركين ، فانتهى القتل إلى الذرية ، فلما جاؤوا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما حملكم على قتل الذرية؟ » قالوا : يا رسول الله ، إنما كانوا أولاد المشركين ، قال : « وهل خياركم إلاّ أولاد المشركين؟ والذي نفسي بيده ما من نسمة تولد إلاّ على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها »[١٢٥] وأخرج أحمد من حديث جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه ، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً »[١٢٦] رواه أحمد عن الربيع بن أنس عن الحسن عن جابر . وقال الإمام أحمد في المسند : حدثنا يحيى بن سعيد ، حدثنا هشام ، حدثنا قتادة عن مطرف عن عياض بن حماد : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوماً ، فقال في خطبته حاكياً عن الله سبحانه : « وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم»[١٢٧] الحديث .

أما عن أطفال المشركين فقال:

(اقرأ كتابك) قال : سيقرأ يومئذٍ من لم يكن قارئاً في الدنيا . وأخرج ابن عبد البرّ في التمهيد عن عائشة في قوله : (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى)(الأنعام ١٦٤ قال : سألت خديجة عن أولاد المشركين فقال : «هم من آبائهم " ثم سألته بعد ذلك فقال : الله أعلم بما كانوا عاملين ، ثم سألته بعد ما استحكم الإسلام فنزلت (وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى) فقال : " هم على الفطرة " . أو قال : " في الجنة "[١٢٨] . قال السيوطي : وسنده ضعيف . وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل فقيل له : يا رسول الله إنا نصيب في البيات من ذراري المشركين ، قال : " هم منهم " [١٢٩]. وفي ذلك أحاديث كثيرة وبحث طويل . وقد

ذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية غالب الأحاديث الواردة في أطفال المشركين ، ثم نقل كلام أهل العلم في المسألة فليرجع إليها . وأخرج إسحاق بن راهويه ، وأحمد ، وابن حبان ، وأبو نعيم في المعرفة ، والطبراني ، وابن مردويه ، والبيهقي في كتاب الاعتقاد عن الأسود بن سريع ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصمّ لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في الفترة " ، ثم قال : " فيأخذ الله مواثيقهم ليطيعنه ويرسل إليهم رسولاً أن أدخلوا النار " ، قال : " فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاما ، ومن لم يدخلها يسحب إليها "[١٣٠] ، وإسناده عند أحمد ، هكذا حدثنا علي بن عبد الله ، حدثنا معاذ بن هشام ، حدثني أبي عن أبي قتادة ، عن الأحنف بن قيس ، عن الأسود بن سريع [١٣١].

وبين في موضع آخر أن الفطرة هي توحيد الله والتوجه إليه وحده ، فقال:

(فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الفلك دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين) العنكبوت ٦٥ أي إذا انقطع رجاؤهم من الحياة وخافوا الغرق رجعوا إلى الفطرة ، فدعوا الله وحده كائنين على صورة المخلصين له الدين بصدق نياتهم ، وتركهم عند ذلك لدعاء الأصنام لعلمهم أنه لا يكشف هذه الشدّة العظيمة النازلة بهم غير الله سبحانه[١٣٢]

الفصل التاسع: الاستطاعة

من مباحث القدر التي أوردها أهل العلم في كتبهم مسألة هل يكلف الله الناس ما لا يستطيعون؟

والاستطاعة هنا القدرة التي أقدر الله بها العباد المكلفين على الفعل، ولها ارتباط بالإرادة والمشيئة والقدر عموماً، فالاستطاعة هي قدرة المكلف على فعل الشيء الذي أقدره الله على فعله [١٣٣]

وقد أورد العلامة الشوكان القليل من الكلام عليها ولم يشأ أن يبسط فيها القول وينحو إلى القول أن الله لا يكلف العباد بما لا يطيقون بل فسرها وأمرها دون تفصيل كبير ، ويمكن معرفة ذلك بإيراده أبرز الآيات التي ذكرت هذه المسألة فقال:

(رَبَّنَا وَلاَ تُحَمّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ)[١٣٤] هو أيضاً عطف على ما قبله ، وتكرير النداء للنكتة المذكورة قبل هذا . والمعنى: لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق وقيل : هو عبارة عن إنزال

العقوبات ، كأنه قال : لا تنزل علينا العقوبات بتفريطنا في المحافظة على تلك التكاليف الشاقة التي كَلَّفْتَ بها مَنْ قبلنا . وقيل : المراد به : الشاق الذي لا يكاد يستطاع من التكاليف . قال في الكشاف : وهذا تقرير لقوله : (وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا) البقرة ٢٨٦.

وقال في الآية الأخرى :

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ)(الحج ٧٨ أي من ضيق وشدّة .

وقد اختلف العلماء في هذا الحرج الذي رفعه الله ، فقيل : هو ما أحله الله من النساء مثنى وثلاث ورباع وملك اليمين . وقيل : المراد : قصر الصلاة ، والإفطار للمسافر ، والصلاة بالإيماء على من لا يقدر على غيره ، وإسقاط الجهاد عن الأعرج والأعمى والمريض ، واغتفار الخطأ في تقديم الصيام وتأخيره لاختلاف الأهلة ، وكذا في الفطر والأضحى . وقيل : المعنى : أنه سبحانه ما جعل عليهم حرجاً بتكليف ما يشق عليهم ، ولكن كلفهم بما يقدرون عليه ، ورفع عنهم التكاليف التي فيها حرج ، فلم يتعبدهم بها كما تعبد بها بني إسرائيل . وقيل : المراد بذلك : أنه جعل لهم من الذنب مخرجاً بفتح باب التوبة وقبول الاستغفار والتكفير فيما شرع فيه الكفارة والأرش ، أو القصاص في الجنايات ، وردّ المال أو مثله أو قيمته في الغصب ونحوه . والظاهر أن الآية أعمّ من هذا كله ، فقط حطّ سبحانه ما فيه مشقة من التكاليف على عباده : إما بإسقاطها من الأصل وعدم التكليف بها كما كلف بها غيرهم ، أو بالتخفيف وتجويز العدول إلى بدل لا مشقة فيه ، أو بمشروعية التخلص عن الذنب بالوجه الذي شرعه الله ، وما أنفع هذه الآية وأجلّ موقعها وأعظم فائدتها ، ومثلها قوله سبحانه : (فاتقوا الله مَا استطعتم) التغابن : ١٦ ، وقوله : (يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر) البقرة : ١٨٥ . وقوله : (رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الذين مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ) البقرة : ٢٨٦ . وفي الحديث الصحيح أنه سبحانه قال : « قد فعلت » كما سبق بيانه في تفسير هذه الآية ، والأحاديث في هذا كثيرة[١٣٥] .

وقال مفندا قول من قال إن الله تعالى يحاسب على النية دون العمل :

(رَبَّنَا وَلاَ تُحَمّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ) قال : قد فعلت : (واعف عَنَّا واغفر لَنَا وارحمنا) الآية ، قال : قد فعلت . وقد رويت هذه القصة ، عن ابن عباس من طرق . وأخرج البخاري ، والبيهقي عن مروان الأصفر ، عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أحسبه ابن

عمر : (إِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ) قال : نسختها الآية التي بعدها[١٣٦] . وأخرج عبد بن حميد ، والترمذي ، عن علي نحوه . وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، والطبراني ، عن ابن مسعود ، نحوه . وأخرج ابن جرير ، عن عائشة نحوه أيضاً [١٣٧].

وبمجموع ما تقدم يظهر لك ضعف ما أخرجه سعيد بن منصور ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال : نزلت في كتمان الشهادة ، فإنها لو كانت كذلك لم يشتد الأمر على الصحابة . وعلى كل حال ، فبعد هذه الأحاديث المصرّحة بالنسخ ، والناسخ لم يبق مجال لمخالفتها ، ومما يؤيد ذلك ما ثبت في الصحيحين ، والسنن الأربع من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم ، أو تعمل به»[١٣٨] وأخرج ابن جرير ، عن عائشة قالت : كل عبدٍ همَّ بسوءٍ ، ومعصيةٍ ، وحدَّث نفسه به حاسبه الله في الدنيا يخاف ، ويحزن ويشتدُّ همُّه لا يناله من ذلك شيئاً ، كما هم بالسوء ، ولم يعمل منه بشيء . وأخرج سعيد بن منصور ، وابن جرير ، عنها نحوه ، والأحاديث المتقدمة المصرِّحة بالنسخ تدفعه . وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس قال : إن الله يقول يوم القيامة : إن كتَّابي لم يكتبوا من أعمالكم إلا ما ظهر منها ، فأمَّا ما أسررتم في أنفسكم ، فأنا أحاسبكم به اليوم ، فأغفر لمن شئت ، وأعذب من شئت ، وهو مدفوع بما تقدم [١٣٩].

الفصل العاشر: الميثاق

تعريف الميثاق وحقيقته

يعرف العلامة الشوكاني الميثاق بقوله:

الميثاق هو اليمين ، وقيل : هو : الإقرار بالله ، والأوّل أولى[١٤٠]

وفي آيات الميثاق يورد في تأويلها أحاديث عدة مستدلاً أنه كان في عالم ما قبل خلق ذرية آدم ، في تأويل قوله تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ) الأعراف ١٧٢

وقد أخرج مالك في الموطأ ، وأحمد في المسند ، وعبد بن حميد ، والبخاري في تاريخه ، وأبو داود ، والترمذي وحسنه ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن حبان في صحيحه ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، والضياء في المختارة : أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ) الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل عنها فقال : « إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون . ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية ، فقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون » ، فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال : « إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله النار »[١٤١] وأخرج أحمد ، وابن جرير ، والنسائي ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في الأسماء والصفات ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان ، يوم عرفة ، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديه ، ثم كلمهم فقال : (أَلَسْت بِرَبّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَا) إلى قوله : (المبطلون) »[١٤٢] وإسناده لا مطعن فيه . وقد أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً على ابن عباس .

وأخرج ابن جرير ، وابن منده في كتاب « الردّ على الجهمية » عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم) ، قال : أخذهم من ظهره كما يؤخذ المشط من الرأس ، فقال لهم : ألست بربكم؟ قالوا بلى ، قالت الملائكة : (شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) » وفي إسناده أحمد بن أبي طبية ، وأخرج عبد بن حميد ، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول ، والطبراني ، وأبو الشيخ في العظمة ، وابن مردويه ، عن أبي أمامة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لما خلق الله الخلق ، وقضى القضية ، وأخذ ميثاق النبيين وعرشه على الماء ، فأخذ أهل اليمين بيمينه ، وأخذ أهل الشمال بيده الأخرى وكلتا يدي الرحمن يمين ، فقال : يا أصحاب اليمين ، فاستجابوا له فقالوا : لبيك ربنا وسعديك ، قال : ألست بربكم قالوا بلى »[١٤٣] الحديث . والأحاديث في هذا الباب كثيرة ، بعضها مقيد بتفسير هذه الآية ، وبعضها مطلق يشتمل

على ذكر إخراج ذرية آدم من ظهره ، وأخذ العهد عليهم ، كما في حديث أنس مرفوعاً في الصحيحين وغيرهما .

ويقول كذلك:

وأما المروي عن الصحابة في تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من صلبه في عالم الذرّ ، وأخذ العهد عليهم وإشهادهم على أنفسهم فهي كثيرة ، منها عن ابن عباس ، عند عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، في قوله : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ) الآية قال : خلق الله آدم وأخذ ميثاقه أنه ربه ، وكتب أجله ورزقه ، ثم أخرج ولده من ظهره كهيئة الذر ، فأخذ مواثيقهم أنه ربهم ، وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصيباتهم[١٤٤] . وأخرج نحوه عنه ابن جرير ، وابن أبي حاتم . وأخرج نحوه عنه أيضاً ابن جرير ، وابن المنذر . وأخرج نحوه عنه عبد الرزاق وابن المنذر . وأخرج نحوه عنه عبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن منده . وهذا المعنى مروي عنه من طرق كثيرة غير هذه موقوفة عليه .

وعن عبد الله بن عمر في قوله : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ) الآية قال : أخذهم كما يأخذ المشط من الرأس[١٤٥] . وأخرج ابن عبد البرّ في التمهيد عن ابن مسعود ، وناس من الصحابة في تفسير الآية نحوه .

وأخرج عبد بن حميد ، وغيره ، عن أبيّ بن كعب في قوله : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءادَمَ) الآية قال : جمعهم جميعاً فجعلهم أرواحاً في صورهم ، ثم استنطقهم فتكلموا ، ثم أخذ عليهم العهد والميثاق ، ثم أشهدهم على أنفسهم [١٤٦].

وقد روي عن جماعة ممن بعد الصحابة تفسير هذه الآية بإخراج ذرية آدم من ظهره ، وفيما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسيرها مما قدمنا ذكره ما يغني عن التطويل [١٤٧].

وللعلامة الشوكاني كلام طويل ، لكن هذه خلاصة قوله في الميثاق مستدلاً بالآثار وبأقوال أهل العلم من السلف الصالح.

هل يتعدد الميثاق؟

أما من حيث تعدد الميثاق فقد بين شيئا من ذلك فقال في ميثاق النبيين الذي أخذ عليهم وما هو:

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النبيين مِيثَاقَهُمْ) العامل في الظرف محذوف ، أي واذكر ، كأنه قال : يا أيها النبي اتق الله ، واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين . قال قتادة : أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصاً أن يصدق بعضهم بعضاً ، ويتبع بعضهم بعضاً . وقال مقاتل : أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله ، ويدعوا إلى عبادة الله ، وأن يصدق بعضهم بعضاً ، وأن ينصحوا لقومهم . والميثاق هو اليمين ، وقيل : هو : الإقرار بالله ، والأوّل أولى ، وقد سبق تحقيقه . ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم ، فقال : (وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وإبراهيم وموسى وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ) الأحزاب ٧ ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل؛ لكونهم من أصحاب الشرائع المشهورة ومن أولي العزم من الرسل ، وتقديم ذكر نبينا صلى الله عليه وسلم مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى . قال الزجاج : وأخذ الميثاق حيث أخرجوا من صلب آدم كالذرّ . ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره ووصفه بالغلظ فقال : (وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ ميثاقا غَلِيظاً) أي عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا وما أخذه الله عليهم ، ويجوز : أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرّتين ، فأخذ عليهم في المرّة الأولى مجرّد الميثاق بدون تغليظ ولا تشديد . ثم أخذه عليهم ثانياً مغلظاً مشدّداً ، ومثل هذه الآية قوله : (وَإِذْ أَخَذَ الله ميثاق النبيين لَمَا ءَاتَيْتُكُم مّن كتاب وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدّقٌ لّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ)[١٤٨]

وقال مؤكدا أن القدر سابق وأن من كتب الله عليه الضلالة لن يهتدي وسيجحد الميثاق الذي أخذ عليه

(سَوَاء عَلَيْهِمْ ءأَنذَرْتَهُمْ) قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص أن يؤمن جميع الناس ، ويتابعوه على الهدى ، فأخبره الله أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ، ولا يضلّ إلا من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس أيضاً في تفسير الآية : أنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك ، وجحدوا ما أخذ عليهم من الميثاق ، فكيف يسمعون منك إنذاراً وتحذيراً ، وقد كفروا بما عندهم من علمك[١٤٩]

وقال فيه:

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس قال في الآية : (أَسْلَمَ مَن فِى السموات والأرض) حين أخذ عليهم الميثاق(١٥٠) .

وقال:

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبيّ بن كعب ، في قوله : (فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ) قال : كان في علم الله يوم أقروا له بالميثاق من يكذب به ممن يصدّق به (١٥١).

وأشار إلى أن الله تعالى أحيا العباد يوم أخذ الميثاق عليهم:

(وَكُنتُمْ أمواتا فأحياكم ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ) البقرة : ٢٨. وقيل : معنى الآية : أنهم أميتوا في الدنيا عند انقضاء آجالهم ، ثم أحياهم الله في قبورهم للسؤال ، ثم أميتوا ، ثم أحياهم الله في الآخرة ، ووجه هذا القول : أن الموت سلب الحياة ، ولا حياة للنطفة . ووجه القول الأوّل : أن الموت قد يطلق على عادم الحياة من الأصل ، وقد ذهب إلى تفسير الأوّل جمهور السلف . وقال ابن زيد : المراد بالآية : أنه خلقهم في ظهر آدم ، واستخرجهم ، وأحياهم ، وأخذ عليهم الميثاق ، ثم أماتهم ، ثم أحياهم في الدنيا ، ثم أماتهم(١٥٢)

ما معنى العهد

وذهب إلى إن العهد هو الميثاق المذكور في بعض آيات الكتاب في قوله : (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مّنْ عَهْدٍ) قال : الوفاء . وأخرج ابن أبي حاتم ، في الآية قال : هو ذاك العهد يوم أخذ الميثاق(١٥٣)

(أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يبَنِى آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ الشيطان) يس ٦٠ ، وهذا من جملة ما يقال لهم . والعهد : الوصية ، أي : ألم أوصكم ، وأبلغكم على ألسن رسلي : أن لا تعبدوا الشيطان أي : لا تطيعوه . قال الزجاج : المعنى : ألم أتقدّم إليكم على لسان الرسل يا بني آدم . وقال مقاتل : يعني : الذين أمروا بالاعتزال . قال الكسائي : لا للنهي ، وقيل : المراد بالعهد هنا : الميثاق المأخوذ عليهم حين أخرجوا من ظهر آدم(١٥٤)

وقال

وقال الزجاج : معنى (حملها) : خان فيها ، وجعل الآية في الكفار والفساق والعصاة ، وقيل : معنى (حملها) : كلفها وألزمها ، أو صار مستعدًّا لها بالفطرة ، أو حملها عند عرضها عليه في عالم الذرّ عند خروج ذرية آدم من ظهره ، وأخذ الميثاق عليهم .

واللام في (لِّيُعَذِّبَ الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) الفتح ٤٦ متعلق ب (حملها) أي حملها الإنسان ليعذّب الله العاصي ويثيب المطيع ، وعلى هذا فجملة (إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً) معترضة بين الجملة وغايتها للإيذان بعدم وفائه بما تحمّله . قال مقاتل ابن سليمان ، ومقاتل بن حيان : ليعذبهم بما خانوا من الأمانة وكذبوا من الرسل ونقضوا من الميثاق الذي أقرّوا به حين أخرجوا من ظهر آدم(١٥٥)

الفصل الحادي عشر: الآجال

ذهب العلامة الشوكاني إلى أن الآجال مضروبة مقسومة(١٥٦) وبين في تأويل تلك الآيات هذا الأمر

(لِكُلّ أَجَلٍ كِتَابٌ) سورة الرعد الآية ٣٨ أي : لكل أمر مما قضاه الله ، أو لكل وقت من الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم . وقال الفراء : فيه تقديم وتأخير ، والمعنى : لكل كتاب أجل أي : لكل أمر كتبه الله أجل مؤجل ، ووقت معلوم ، كقوله سبحانه : (لِّكُلّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ) وليس الأمر على حسب إرادة الكفار واقتراحاتهم ، بل على حسب ما يشاؤه ويختاره(١٥٧) .

وقال أيضا في تأويل قوله تعالى:

(إِنَّ أَجَلَ الله إِذَا جَاء لاَ يُؤَخَّرُ) أي : ما قدّره لكم على تقدير بقائكم على الكفر من العذاب إذا جاء ، وأنتم باقون على الكفر لا يؤخر بل يقع لا محالة ، فبادروا إلى الإيمان والطاعة . وقيل المعنى : إن أجل الله ، وهو الموت إذا جاء لا يمكنكم الإيمان . وقيل المعنى : إذا جاء الموت لا يؤخر سواء كان بعذاب أو بغير عذاب(١٥٨)

وقال مؤكداً ذلك:

(إِذَا جَاء أَجَلُهُمْ) أي : ذلك الوقت المعين ، والضمير راجع إلى كل أمة (فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ) عن ذلك الأجل المعين (سَاعَةِ) أي : شيئاً قليلاً من الزمان (وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) وعليه ، وجملة : (لا يستقدمون) معطوفة على جملة (لا يستأخرون)(١٥٩)

الفصل الثاني عشر: اللوح المحفوظ

من المعلوم أن الكتابة وهي المرتبة الثانية من القدر حق لا ريب فيه وأن الله تعالى كتب كل الأقدار في كتاب ، وهذا الكتاب عبارة عن لوح مطهر كتب فيه القلم ما هو كائن إلى يوم القيامة [١٦٠]، وقد أكد العلامة الشوكاني هذا في تفسيره

(وَقَالَ الذين أُوتُواْ العلم والإيمان لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كتاب الله إلى يَوْمِ البعث) الروم ٥٧ اختلف في تعيين هؤلاء الذين أوتوا العلم ، فقيل : الملائكة . وقيل : الأنبياء . وقيل : علماء الأمم . وقيل : مؤمنو هذه الأمة ، ولا مانع من الحمل على الجميع . ومعنى في كتاب الله : في علمه وقضائه . قال الزجاج: في علم الله المثبت في اللوح المحفوظ[١٦١]

وقال مفسرا قوله تعالى:

(لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنَا) التوبة ٥١ أي : في اللوح المحفوظ ، أو في كتابه المنزّل علينا ، وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدّره الله كائن ، وأن كل ما ناله من خير أو شرّ إنما هو بقدر الله وقضائه ، هانت عليه المصائب ، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة[١٦٢]

وقال:

وقال صاحب النظم : الكتب بمعنى الحكم كقوله : (كَتَبَ الله لأَغْلِبَنَّ أَنَاْ وَرُسُلي) المجادلة : ٢١ أي : حكم . وقوله صلى الله عليه وسلم في قصة العسيف : «لأقضين بينكما بكتاب الله »[١٦٣] ثم قضى بالرجم ، وليس الرجم في كتاب الله ، فالمعنى : لأقضينّ بينكما بحكم الله ، وبهذا يندفع ما قيل : إن الصحف هي الكتب ، فكيف قال : (صُحُفاً مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيّمَةٌ) سورة القيمة ٩ وقال الحسن : يعني : بالصحف المطهرة التي في السماء ، يعني في اللوح المحفوظ ، كما في قوله : (بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ)[١٦٤] .

وأورد في تأويله سورة القدر كلام أهل العلم في اللوح

وقال قتادة : أنزل القرآن كله في ليلة القدر من أمّ الكتاب ، وهو : اللوح المحفوظ إلى بيت العزّة في سماء الدنيا ، ثم أنزله الله سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة ، وقد تقدّم تحقيق الكلام في هذا في البقرة عند قوله : (شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فِيهِ القرآن) البقرة : ١٨٥ وقال مقاتل : كان ينزل من اللوح كل ليلة قدر من

الوحي على مقدار ما ينزل به جبريل في السنة إلى مثلها من العام . ووصف الله سبحانه هذه الليلة ، بأنها مباركة لنزول القرآن فيها ، وهو مشتمل على مصالح الدين والدنيا ، ولكونها تتنزّل فيها الملائكة ، والروح كما سيأتي في سورة القدر ، ومن جملة بركتها ما ذكره الله سبحانه ها هنا بقوله : (فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ) ، ومعنى يفرق : يفصل ، ويبين من قولهم : فرقت الشي أفرقه فرقاً ، والأمر الحكيم : المحكم ، وذلك أن الله سبحانه يكتب فيها ما يكون في السنة من حياة وموت ، وبسط وقبض ، وخير وشرّ ، وغير ذلك ، كذا قال مجاهد ، وقتادة ، والحسن ، وغيرهم . وهذه الجملة إما صفة أخرى لليلة ، وما بينهما اعتراض ، أو مستأنفة لتقرير ما قبلها . قرأ الجمهور : (يفرق) بضمّ الياء ، وفتح الراء مخففاً ، وقرأ الحسن ، والأعمش ، والأعرج بفتح الياء وضم الراء ، ونصب كل أمر ، ورفع حكيم على أنه الفاعل . والحق ما ذهب إليه الجمهور من أن هذه الليلة المباركة هي : ليلة القدر[١٦٥]

وقال أيضاً في شأن أمر الله تعالى ونسخه تلك الأقدار من اللوح المحفوظ:

(إِنَّا أنزلناه فِي لَيْلَةِ القدر) القدر : ١ ، فلم يبق بعد هذا البيان الواضح ما يوجب الخلاف ، ولا ما يقتضي الاشتباه (أَمْراً مّنْ عِنْدِنَا) قال الزجاج ، والفراء : انتصاب (أمراً) ب (يفرق) ، أي : يفرق فرقاً ، لأن أمراً بمعنى : فرقاً . والمعنى : إنا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللوح المحفوظ [١٦٦]

وقال:

(أنزلناه) للقرآن ، وإن لم يتقدّم له ذكر . أنزل جملة واحدة في ليلة القدر إلى سماء الدنيا من اللوح المحفوظ ، وكان ينزل على النبيّ صلى الله عليه وسلم نجوماً على حسب الحاجة ، وكان بين نزول أوّله وآخره على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث وعشرون سنة ، وفي آية أخرى : (إِنَّا أنزلناه فِى لَيْلَةٍ مباركة) الدخان : ٣ وهي : ليلة القدر؛ وفي آية أخرى : (شَهْرُ رَمَضَانَ الذى أُنزِلَ فِيهِ القرآن) البقرة : ١٨٥ وليلة القدر في شهر رمضان . قال مجاهد : في ليلة القدر ليلة الحكم . وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ القدر } ليلة الحكم ، قيل سميت ليلة القدر لأن الله سبحانه يقدّر فيها ما شاء من أمره إلى السنة القابلة . وقيل : إنها سميت بذلك لعظيم قدرها وشرفها ، من قولهم : لفلان قدر ، أي : شرف ومنزلة ، كذا قال الزهري . وقيل

: سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً ، وثواباً جزيلاً . وقال الخليل : سميت ليلة القدر[١٦٧]

هل يمحو الله شيئا من القدر؟

استعرض العلامة الشوكاني هذه المسألة وبين معنى المحو والإثبات في أقدر الله تعالى فقال: (لِكُلّ أَجَلٍ كِتَابٌ) ومع قوله : (وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب) أي : أصله ، وهو اللوح المحفوظ ، فالمراد من الآية أنه يمحو ما يشاء مما في اللوح المحفوظ فيكون كالعدم ، ويثبت ما يشاء مما فيه فيجري فيه قضاؤه وقدره على حسب ما تقتضيه مشيئته ، وهذا لا ينافي ما ثبت عنه من قوله صلى الله عليه وسلم : «جفّ القلم»[١٦٨] ، وذلك لأن المحو والإثبات هو من جملة ما قضاه الله سبحانه . وقيل : إن أم الكتاب هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق[١٦٩] .

وقال:

(يَمْحُو الله مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ) الرعد ٣٩ قال : يبدّل الله ما يشاء من القرآن فينسخه ، ويثبت ما يشاء فلا يبدّله (وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب) يقول : وجملة ذلك عنده في أمّ الكتاب : الناسخ والمنسوخ ، ما يبدّل ، وما يثبت كل ذلك في كتاب . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس (وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب) قال : الذكر . وأخرج ابن المنذر عن مجاهد مثله . وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير عن يسار ، عن ابن عباس : أنه سأل كعباً عن أمّ الكتاب ، فقال : علم الله ما هو خالق ، وما خلقه عالمون ، فقال لعلمه : كن كتاباً ، فكان كتاباً[١٧٠]

****

الخاتمة

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على النبي المصفى وعلى آله وصحبة ومن اقتفى ، وبعد فهذه أهم النتائج التي توصلت لها في هذا البحث للعلامة الشوكاني وعقيدته في القدر:

١ بين ان تعريف وحقيقة القدر بأنه ما قضاه وسبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه ، والقدر التقدير.

٢ أكد على وجوب الإيمان بالقدر وأورد ما يفيد أن الإيمان بالقدر هو العروة الوثقى.

٣ بين الشوكاني منزلة التسليم لما قضى الله وقدر والرضى بذلك من الإيمان

٤ سلك العلامة الشوكاني مسلك كثير من المفسرين في بيان معاني القدر وألفاظه ولم يفرق بينهما بتفريق يحصر ويستنبط به الفرق بينهما وذلك في مواضع عدة من تفسيره

٥ لفظ القضاء فصل معناه وبين أنه أحد معاني قد يراد بها القدر وما قضاه الله بحسب السياق في الآيات الواردة ، وذهب إلى أن القضاء في بعض الآيات يأتي بمعنى الأمر والإلزام الشرعي لا القدري.

٦ مما علم عند أهل السنة باستقراء نصوص الوحيين أن القدر له مراتب أربعة هي العلم والكتابة والمشيئة والخلق. ولكن العلامة الشوكاني لم يشر إلى هذه المراتب تحديدا وإنما تناولها في تفسيره كغيره من علماء التفسير وهي مراتب: العلم والكتابة والمشيئة والخلق

٧ في معاني القدريات والشرعيات في آيات الكتاب قسم العلماء المحققون من أهل السنة والجماعة ألفاظ القدر الواردة في القرآن والسنة واستنبطوا منها أن دلالتها بحسب سياقها ، فتارة تدل على القدر والحكم الكوني اللازم المتحقق ، وتارة تدل على أنه أمر شرعي يتعلق بمحبة الله ورضاه وقد يتحقق وقد لا يتحقق

وبالنظر في تفسير الشوكاني نجده فسر هذه المواضع كما هو معلوم عند أهل السنة والجماعة ومن ذلك: **كلمات الله** ، الإرادة ، القضاء ، الحكم ، الكتاب ونحوها .

٨ من ركائز الاعتقاد في الإيمان بالقدر أن الله تعالى كتب الهدى والضلال قبل خلق المخلوقات وأن ذلك من القدر السابق فمن كتب الله له الهداية يسرها له في الدنيا وكذلك الإضلال ، وقد أورد العلامة الشوكاني في تفسيره الكثير من ذلك .

٩ من الأمور العلمية التي تكلم عليها العلامة الشوكاني في مسألة الهدى أن الهداية الواردة في القرآن الكريم على نوعين: هداية بمعنى القدر الكوني المضروب وهداية بمعنى الدلالة والإرشاد.

١٠ قرر العلامة الشوكاني خلق أفعال العباد وهي من مسائل القدر الهامة التي يجب على المسلم اعتقادها ، فلا شيء يقع في كون الله بغير مشيئته وخلقه ومن ذلك ما يفعله العباد من أفعال ، مستدلا بآيات منها قوله تعالى:(إِنَّا كُلَّ شَيء خلقناه بِقَدَرٍ)

١١ عرف الفطرة أنها في الأصل : الخلقة ، والمراد بها هنا : الملة ، وهي الإسلام والتوحيد

١٢ يرى الشوكاني أن الأطفال يولدون على الفطرة وهي توحيد الله ، وبين في مواضع آخر أن الفطرة هي توحيد الله والتوجه إليه وحده .

١٣ أورد العلامة الشوكاني مسألة الاستطاعة وذكر القليل من الكلام عليها ولم يشأ أن يبسط فيها القول وينحو إلى القول أن الله لا يكلف العباد بما لا يطيقون بل فسرها وأمرها دون تفصيل كبير ، ويمكن معرفة ذلك بإيراده أبرز الآيات التي ذكرت هذه المسألة

١٤ أورد الشوكاني آيات الميثاق وفي تأويلها أورد أحاديث عدة مستدلاً أنه كان في عالم ما قبل خلق ذرية آدم وبين أنه الميثاق متعدد .

١٥ ذهب العلامة الشوكاني إلى أن الآجال مضروبة مقسومة وبين في تأويل تلك الآيات هذا الأمر

١٦ من المعلوم أن الكتابة وهي المرتبة الثانية من القدر حق لا ريب فيه وأن الله تعالى كتب كل الأقدار في كتاب ، وهذا الكتاب عبارة عن لوح مطهر كتب فيه القلم ما هو كائن إلى يوم القيامة ، وقد أكد العلامة الشوكاني هذا في تفسيره

التوصيات:

١- العناية بمؤلفات الامام الشوكاني بمزيد من البحث والعناية

٢- الاهتمام بالمسائل العقائدية التي أوردها في تفسيره فتح القدير وبيانها وتحقيق أقواله فيها

٣- ابراز دوره كعالم مجتهد من أصول زيدية اتبع الدليل واعتنق الحق لحث الإسلام على الاجتهاد وبذل الوسع في ذلك.

****

فهرس المصادر والمراجع

- **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة** ، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بَطَّة العكبري الحنبلي (ت ٣٨٧ هـ) تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري ، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض

- **اعتقاد أئمة الحديث** ، أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس الإسماعيلي الجرجاني (ت ٣٧١هـ) ، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس الناشر: دار العاصمة – الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ
- **الأعلام** ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦ هـ) ، دار العلم للملايين لطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م
- **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** ، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ) دار المعرفة – بيروت
- **تزكية النفوس** ، أحمد فريد ، دار العقيدة للتراث – الإسكندرية ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م
- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** ، أبو جعفر، محمد بن جرير الطبري (٢٢٤ – ٣١٠هـ)

توزيع: دار التربية والتراث – مكة المكرمة الطبعة: بدون تاريخ نشر

- **الجامع الصحيح المختصر** ، محمد بن إسماعيل البخاري ، تحقيق: مصطفى البغا ، دار ابن كثير (بيروت) ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م
- **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر** عبد الرزاق البيطار; الناشر: دار صادر بيروت مطبوعات مجمع اللغة العربية
- **شرح الأربعين النووية** ، عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر ،مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net
- **شرح عقيدة السلف وأصحاب الحديث** ، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن الراجحي ، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net
- **شرح رسالة العبودية لابن تيمية** ، عبد الرحيم بن صمايل العلياني السلمي ،مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net

- **شرح الطحاوية** ناصر بن عبد الكريم العلي العقل مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net الكتاب مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس – ١١٠ درسا
- **شرح العقيدة الواسطية**، ويليه ملحق الواسطية ، محمد بن خليل حسن هرّاس (ت ١٣٩٥هـ) ضبط نصه وخرَّج أحاديثه ووضع الملحق: علوي بن عبد القادر السقاف ، دار الهجرة للنشر والتوزيع – الخبر ، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥ هـ
- **شرح الاقتصاد في الاعتقاد** ، عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن الراجحي مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net
- **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل** ، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ) ، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م
- **صحيح مسلم** ، لمسلم بن الحجاج النيسابوري ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي(بيروت) ١٣٧٤هـ ١٩٥٤م
- **صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته** ، المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني ، الناشر : المكتب الإسلامي
- **فتح القدير** ، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ) ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت ، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ
- **القضاء والقدر** ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي (٣٨٤ – ٤٥٨ هـ) تحقيق: محمد بن عبد الله آل عامر ، مكتبة العبيكان – الرياض، السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م
- **عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر عند السلف وأثرها على المؤمن** ، د. عبد المجيد بن محمد الوعلان، الكتاب غير مطبوع ، ضمن المكتبة الشاملة

- **كتاب القدر** ، أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المُسْتَفاض الفِرْيابِي (ت ٣٠١ هـ) تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور ، أضواء السلف – السعودية الطبعة: الأولى ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م
- **كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة** ، لنخبة من العلماء ،نشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ
- **المسند للإمام أحمد بن حنبل** ، مؤسسة قرطبة بمصر (عن النسخة الميمنية)
- **الموطأ** ، مالك بن أنس ، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد فؤاد عبد الباقي [ت ١٣٨٨ هـ] ، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٥ م
- **المعجم الأوسط** ، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (٢٦٠ – ٣٦٠ هـ) تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد – أبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، دار الحرمين – القاهرة ، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م
- **الموسوعة العقدية** ، إعداد: مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف ، نشر موقع الدرر السنية على الإنترنت
- **مسند الشاميين** ، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي [ت ١٤٣٣ هـ] مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ – ١٩٨٤
- **معجم الشعراء العرب** ، تم جمعه من موقع الموسوعة الشعرية] K الكتاب مرقم آليا[
- **مجموع الفتاوى** ، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس
- **المستدرك على الصحيحين** ، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري ، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠ ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا

الهوامش

[١] رواه الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم (ت ٣٦٠ هـ) ، **مسند الشاميين** ، تحقيق : حمدي بن عبدالمجيد السلفي [ت ١٤٣٣ هـ] مؤسسة الرسالة – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ – ١٩٨٤ ، ص ٣٤٤ .

[٢] انظر تراجم شعراء الموسوعة الشعرية ، ص ٥٥٦ ، البيطار عبد الرزاق حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر; الناشر: دار صادر بيروت مطبوعات مجمع اللغة العربية ٦٣/٢

، الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الدمشقي (ت ١٣٩٦ هـ) **الأعلام** ، ، دار العلم للملايين لطبعة: الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م ٢٩٨/٦ ، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت ١٢٥٠هـ) **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع** دار المعرفة – بيروت٢٠٧/٢

[٣] انظر د. الوعلان عبد المجيد بن محمد **عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر عند السلف وأثرها على المؤمن** ، الكتاب غير مطبوع ، ضمن المكتبة الشاملة ، ص٤

[٤] الشوكاني محمد بن علي بن محمد بن عبد الله اليمني (ت ١٢٥٠هـ) فتح القدير ٤٨/٦ : دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ

[٥] المصدر السابق ٩٩/٧

[٦] فتح القدير ١٦٨/١

[٧] المصدر السابق ٢٦٠/٥

[٨] رواه البخاري محمد بن إسماعيل **الجامع الصحيح المختصر** ، ، تحقيق: مصطفى البغا ، دار ابن كثير (بيروت) ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ١٤٧/٩ ، رقم: ٧٤٠٤

[٩] رواه مسلم بن الحجاج النيسابوري **صحيح مسلم** ، ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي(بيروت) ١٣٧٤هـ ١٩٥٤م ٩٥/٨ ، رقم: ٧١٤٥

[١٠] فتح القدير ٢٢/١

[١١] رواه البخاري ١٥٣/٩ ، رقم: ٧٤٢٢

[١٢] فتح القدير ٣٩٨/٢

[١٣] المصدر السابق ٣٨٧/٧

[١٤]انظر ، مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف **الموسوعة العقدية** ، نشر موقع الدرر السنية على الإنترنت ٢٤٣/٥

[١٥] رواه مسلم ٢٨/١ ، رقم: ١٠٢

[١٦] فتح القدير ٣٨٧/٧

[١٧] رواه الطبراني في مسند الشاميين ٥٧/٢ ، رقم: ٩١٣

[١٨] فتح القدير /٣٧٤

[١٩] المصدر السابق ٢٣٥/٧

[٢٠] انظر ، أحمد فريد **تزكية النفوس** ، دار العقيدة للتراث – الإسكندرية ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م ، ص ١٠٠

[٢١] فتح القدير ٤٨/٦

[٢٢] المصدر السابق ٤٥٧/١

[٢٣] المصدر نفسه ٢٣٥/٧

[٢٤] انظر للمزيد في الفروقات بين القضاء والقدر : العباد البدر عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد **شرح الأربعين النووية** ، ،مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية

ج ٧/ ٣٦ وكذلك الموسوعة العقدية ٢٣٨/٥

[٢٥] فتح القدير ٤٥٦/٤

[٢٦] المصدر السابق ١٦٣/٦

[٢٧] المصدر نفسه ٤٥٦/٤

[٢٨] المصدر نفسه7 /٤٧٠

[٢٩] فتح القدير ٢٩٩/٤

[٣٠] الأحزاب ٣٦

[٣١] فتح القدير ٤٧/٦

[٣٢] المصدر السابق ٢٩١/٦

[٣٣] انظر **كتاب أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة** ، لنخبة من العلماء ،نشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ، ص ٢٤٧

[٣٤] فتح القدير ١٦٧/٣

[٣٥] المصدر السابق ٣٩٢/٣

[٣٦] المصدر السابق ٣٠/١

[٣٧] فتح القدير ٤٥٧/١

[٣٨]المصدر السابق ٤٠٧/٢

[٣٩] المصدر نفسه ٤١٩/٣

[٤٠] المصدر نفسه ٤٥٥/٣

[٤١] المصدر نفسه ٤٢/٤

[٤٢] فتح القدير ٢٨٩/٤

[٤٣] المصدر السابق ٤٣/٥

[٤٤] المصدر السابق ٤٩٤/٥

[٤٥] المصدر السابق ٢٨٩/٢

[٤٦] فتح القدير ٢٠٥/٣

[٤٧] المصدر السابق ٢٦٦/٣

[٤٨] المصدر السابق ٢٦٨/٣

[٤٩] المصدر السابق ٣١/٢

[٥٠] المصدر السابق ٣٣/٣

[٥١] المصدر السابق ١١٩/٤

[٥٢] فتح القدير ٤٢٥/٦

[٥٣] المصدر السابق ٣٣/٨

[٥٤] المصدر السابق ٤١٢/٥

[٥٥] فتح القدير ٦/٦

[٥٦] المصدر السابق ٢٣٦/٥

[٥٧] المصدر السابق /٤٣١

[٥٨] المصدر السابق ١٥٧/١

[٥٩] المصدر السابق ٢٠/٢

[٦٠] فتح القدير ١٥٨/٢

[٦١] المصدر السابق ٢٨٦/٢

[٦٢] المصدر السابق ٩١/٤

[٦٣] المصدر السابق ٨٢/٧

[٦٤] فتح القدير ٤٠٩/٢

[٦٥] المصدر السابق ٤٧٠/٥ ، ٤٧١

[٦٦] الحراني أحمد بن عبد الحليم بن تيمية أبو العباس مجموع الفتاوى ٤١١/٢ بدون بيانات اضافية

[٦٧] فتح القدير ٤٩٤/٥

[٦٨] فتح القدير ٣٦٣/١

[٦٩] المصدر السابق ٣١٠/٢

[٧٠] المصدر السابق ٤٧٥/٢

[٧١] فتح القدير ٣٣٦/٦

[٧٢] المصدر السابق ٣٤٤/٦

[٧٣] رواه الحاكم محمد بن عبدالله أبو عبدالله النيسابوري **المستدرك على الصحيحين** ، ، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ – ١٩٩٠ ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا ٥٢٤/٢ ، رقم: ٣٩٣٩ . والبيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى **القضاء والقدر** (٣٨٤ – ٤٥٨ هـ) تحقيق: محمد بن عبد الله آل عامر ، مكتبة العبيكان – الرياض، السعودية الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م ٣٢٠/١ ، رقم: ٣٠١

[٧٤] رواه مسلم ٤٨/٨ رقم: ٦٩٠٩

[٧٥] فتح القدير ٦/٨

[٧٦] فتح القدير ١١٠/٥

[٧٧] المصدر السابق ٢٩٩/٤

[٧٨] المصدر السابق ٣٢٩/٦

[٧٩] المصدر السابق ٣١٤/٢

[٨٠] المصدر السابق ٥٢/٤

[٨١] سبق تخريجه

[٨٢] فتح القدير ٣٧/٨

[٨٣] المصدر السابق ٣٧/٨

[٨٤] المصدر السابق ٢٢٤/٦

[٨٥] المصدر السابق ١١/٢

[٨٦] رواه الطبري ابن جرير أبو جعفر، محمد بن جرير جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢٤ – ٣١٠هـ) توزيع: دار التربية والتراث – مكة المكرمة ٢٩٧/١٥

[٨٧] فتح القدير ٣٢/١

[٨٨] المصدر السابق ٢٩٦/٣

[٨٩] المصدر السابق ١٦١/١

[٩٠] المصدر السابق ٩٠/٧

[٩١] المصدر السابق ٤٢١/٧

[٩٢] فتح القدير ٣٤/٨

[٩٣] انظر ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (ت ٧٥١هـ) **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل** ، ، دار المعرفة، بيروت، لبنان ، الطبعة: ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م شفاء العليل لابن القيم ، ص ٦٥

[٩٤] فتح القدير ٣٧٣/٣

[٩٥] المصدر السابق ٤/٥

[٩٦] فتح القدير ٢٣/١

[٩٧] المصدر السابق ٣١٠/٢

[٩٨] المصدر السابق ١٨٦/٢

[٩٩] المصدر السابق ١/ ٥٧٢

[١٠٠] المصدر السابق ٤٣٨/٣

[١٠١] المصدر السابق ٤٥٥/٣

[١٠٢] فتح القدير ٢٨/٣

[١٠٣] المصدر السابق ٤٧٥/٢

[١٠٤] المصدر السابق ١٢١/٣

[١٠٥] المصدر السابق ٤٧٥/٣

[١٠٦] المصدر السابق ١٢٩/٣

[١٠٧] فتح القدير ٢١٩/٤

[١٠٨] المصدر السابق ٢٣/١

[١٠٩] المصدر السابق ٧٧/٤

[١١٠] المصدر السابق ٣١٥/٥

[١١١] فتح القدير ٢٣٦/٥

[١١٢] انظر الراجحي عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن **شرح عقيدة السلف وأصحاب الحديث** ، ، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net ٢/١١

[١١٣] فتح القدير ٩٩/٧

[١١٤] المصدر السابق ٢٥٨/٥

[١١٥] المصدر السابق ٣٠١/٦

[١١٦] فتح القدير ٤٧٠/٥ ، ٤٧١

[١١٧] المصدر السابق ٢٠٦/٦

[١١٨] للمزيد انظر السلمي عبد الرحيم بن صمايل العلياني **شرح رسالة العبودية لابن تيمية** ، ،مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلاميةhttp://www.islamweb.net ٦/ ١٠

[١١٩] فتح القدير ٥/ ٤٧٠

[١٢٠] رواه البخاري ٣/ ١١٨ ، رقم: ١٣٥٨

[١٢١] رواه البخاري ٤/ ١٥٣ ، رقم: ٦٥٩٩

[١٢٢] فتح القدير ٤٧٠/٥ ، ٤٧١

[١٢٣] فتح القدير ١٧٤/١

[١٢٤] المصدر السابق ٢١٧/٢

[١٢٥] رواه **ابن حنبل أحمد بن عبد الله الإمام في المسند** مؤسسة قرطبة بمصر (عن النسخة الميمنية)

أحمد في المسند ٤٣٥/٣ ، رقم: ١٥٦٢٦ وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع ٢٢/٨ ، رقم: ١١٠٥٠٨

[١٢٦] رواه أحمد في المسند ٣٥٣/٣ ، رقم: ١٤٨٤٧ ، وضعفه الأرنؤوط بهامشه

[١٢٧] فتح القدير ٤٧٣/٥

والحديث رواه أحمد في المسند ١٦٢/٤ ، رقم: ١٧٥١٩ ، وصححه الأرنؤوط بهامشه

[١٢٨] لم أجده بهذا اللفظ وبعض ألفاظه في البخاري وغيره

[١٢٩] رواه مسلم ١٤٤/٥ ، رقم: ٤٦٤٨

[١٣٠] رواه أحمد في المسند ٢٤/٤ ، رقم: ١٦٤١٠ ، ١٦٤١١ ، وحسنه شعيب الأرنؤوط بهامشه

[١٣١] فتح القدير ٢٩٢/٤

[١٣٢] المصدر السابق ٤٥٤/٥

[١٣٣] انظر العقل ناصر بن عبد الكريم العلي شرح الطحاوية مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية

http://www.islamweb.net الكتاب مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس – ١١٠ درسا ٩١/ ٢

[١٣٤] فتح القدير ٤١٩/١

[١٣٥] المصدر السابق ١٤١/٥

[١٣٦] رواه البخاري ٤١/٦ ، رقم ٤٥٤٦

[١٣٧] فتح القدير ٤١٦/١

[١٣٨] رواه البخاري ٥٢٦٩

[١٣٩] فتح القدير ٤١٦/١

[١٤٠] المصدر السابق ٦/ ٢١ وللمزيد انظر الهرّاس محمد بن خليل حسن **شرح العقيدة الواسطية**، ويليه ملحق الواسطية ، (ت ١٣٩٥هـ) ضبط نصه وخرَّج أحاديثه ووضع الملحق: علوي بن عبد القادر السقاف ، دار الهجرة للنشر والتوزيع – الخبر ، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥ هـ ص ٢٨٧

[١٤١] رواه أحمد في المسند ٤٤/١ ، رقم: ٣١١ وقال الأرنؤوط بهامشه: صحيح لغيره . ومالك في الموطأ ٨٩٨/٢ ، رقم: ١٥٩٣

[١٤٢] رواه أحمد في المسند ٢٧٢/١ ، رقم: ٢٤٥٥ ، وذكره الألباني في صحيح الجامع ٢٥٩/١ ، رقم: ٢٥٨١ وصححه

[١٤٣] رواه الطبراني أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني **المعجم الأوسط** ، (٢٦٠ - ٣٦٠ هـ) تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد - أبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني ، دار الحرمين - القاهرة ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م ٣٢٥/٧ ، رقم: ٧٦٣٢

[١٤٤] رواه ابن بطة ، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بَطَّة العكبري الحنبلي **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة** (ت ٣٨٧ هـ) ٣١٩/١ ، والفريابي ، أبو بكر جعفر بن محمد بن الحسن بن المُسْتَفاض الفِرْيابِي **كتاب القدر** (ت ٣٠١ هـ) تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور ، أضواء السلف ٤٦/١ ، رقم: ٤٥

[١٤٥] رواه ابن جرير في تفسيره ٥٥٢/١٠ ، رقم: ١٥٤٢٦

[١٤٦] رواه الحاكم في المستدرك ٣٥٣/٢ ، رقم: ٣٢٥٥

[١٤٧] فتح القدير ١١٧/٣-١١٩

[١٤٨] فتح القدير ٢١/٦

[١٤٩] المصدر السابق ٣١/١

[١٥٠] فتح القدير ٤٩٠/١

[١٥١] المصدر السابق ٦٩/٣

[١٥٢] المصدر السابق ٣١٣/٦

[١٥٣] المصدر السابق ٧٠/٣

[١٥٤] المصدر السابق ١٧٤/٦

[١٥٥] فتح القدير ٨٥/٦

[١٥٦] انظر الجرجاني أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس الإسماعيلي (ت ٣٧١هـ) **اعتقاد أئمة الحديث** ، ، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن الخميس الناشر: دار العاصمة - الرياض الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ ، ص ٧٧

[١٥٧] فتح القدير ١١٩/٤

[١٥٨] المصدر السابق ٣١١/٧

[١٥٩] فتح القدير ٣٨٢/٣

[١٦٠] انظر الراجحي عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الرحمن **شرح الاقتصاد في الاعتقاد** ، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net ٥/ ٨

[١٦١] فتح القدير ٤٨١/٥

[١٦٢] المصدر السابق ٢٦٦/٣

[١٦٣] رواه البخاري ٢٤١/٣ رقم: ٢٦٩٦

[١٦٤] فتح القدير ٣٧/٨

[١٦٥] فتح القدير ٤٢٢/٦

[١٦٦] المصدر السابق ٤٢٣/٦

[١٦٧] فتح القدير ٥/ ٥٧٥

[١٦٨] رواه البخاري ٧/ ٥ رقم: ٥٠٧٦

[١٦٩] فتح القدير ١٢٠/٤

[١٧٠] المصدر السابق ١٢٢/٤